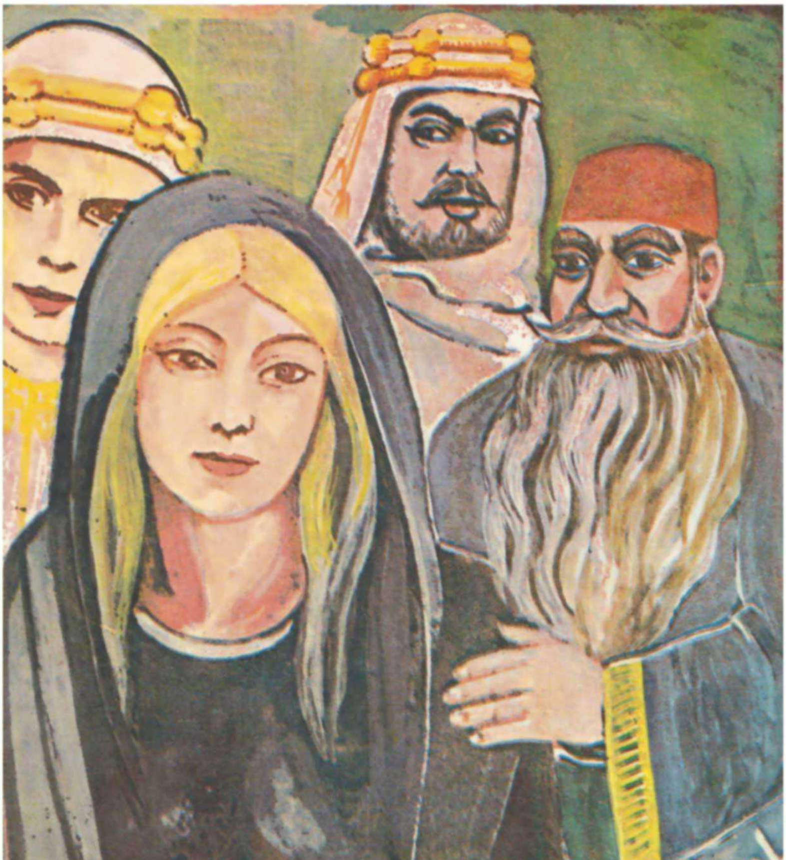
روايات تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



المملوك الشارد



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

المملوك الشارد

روايات تاريخ العرب والإسلام

المملوك الشارد

رواية تؤرخ لحوادث النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف

جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مُقَـدّمَة النَّاشِر

الأمة هي التاريخ . . وتاريخ كل أمة هو تلك البصمات التي يطبعها الرجال الذين يصنعون تاريخ أمتهم . . بالجهد والتضحية على وجهها حتى يعود وضاحاً مشرقاً، ومفخرة لها بين سائر الأمم.

ولا تزال الأمم في مسار تقدمها ورقيها تقتبس من نور تاريخها، وتلتزم تراثها، وتهتدي بعطاء عظمائها ورجالاتها وهي تمضي صعداً في مدارج الرقي والتقدم لبناء مستقبل حضاري أفضل.

ولا تزال الأمم تربي أبناءها وتزودهم بتراث آبائهم واجدادهم. . وتلقنهم عاداتها وتقاليدها لتنمي فيهم روح الالتزام بقيمها وتراثها . . لأن ذلك بعض الوفاء لتاريخ صنعه الآباء بكدهم وجهادهم.

ولعل أمتنا العربية هي أغنى الأمم عطاء . . وأكثر رجالاً وعظماء . . . . !

وما زالت منذ أن أكرمها الله بخاتم رسله ورسالاته تقدم للإنسانية أسمى النماذج البشرية الفذة في كل مضمار وميدان . . . يعترف بذلك كل مطّلع على تاريخ الأمة العربية ويقرّ به كل منصف ونزيه. . .

ولقد قدمت هذه الأمة من النماذج البشرية الفريدة عظماء بهرت سيرتهم الشرق والغرب . . . حتى كانت أحد مواد دراساتها الجامعية في دل شأن وتخصّص إلى يومنا هذا. . . .

ولعل ذلك يثلج صدر كل عربي أصيل، ويبعث على الاعتزاز والفخر. . إلا أن الفخر وحده لم يعد أسلوباً في مواجهة تحديات العصر التي ترصد لصرف الأمة العربية عن تاريخها . . وتدعوها إلى التنكر لتراثها وقيمها الروحية والفكرية والحضارية الأصلية.

من أجل ذلك نقف إلى جانب الدعاة المخلصين إلى العودة الصادقة إلى تراثنا وقيمنا . . . للتزود منها في مسيرة البناء الحضاري مواكبة لسائر الأمم التي تأبى أن تزول قبل أن تترك بصماتها المشرّقة على هذه الأرض . . .

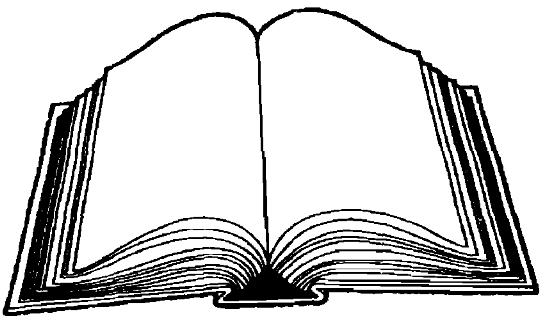
ومن ثم فإننا ندعو الأجيال الصاعدة إلى إعادة دراسة التاريخ العربي بنظرة أكثر عمقاً وشمولية ووضوحاً . . . ولسوف يرون حقاً أن التنكر لتراث الأمة وقيمها لم يأت عليها بغير

الخسران والتخلف على كافة المستويات الحضارية . .

وهذه سلسلة روايات تاريخ الإسلام لمؤلفها جورجي زيدان كتبها في أواخر القرن المنصرم، وحاول فيها أن يقدم التاريخ العربي في قالب روائي جديد، بعيداً عن تعقيدات الموسوعات التاريخية التي لا يتاح لكثير من الشباب أن يفيد منها لأسباب كثيرة يعرفها كل دارس ومعالج لمشاكل الكتاب العربي . . . على أن المؤلف استقى معلوماته من تلك الأمهات والمصادر التاريخية التي أثبتناها في نهاية كل رواية حرصاً على منهجية البحث وأمانته، لمن أراد المزيد من التفاصيل التي تجنبها المؤلف حرصاً على الأسلوب الروائي ومقتضياته.

ولا يفوت دار مكتبة الحياة وهي تصدر هذه السلسلة أن تطمئن القارىء الكريم بى أنها قد راعت في هذه الطبعة الجديدة مراجعة النصوص إضافة إلى اختيار أحدث أساليب الطباعة لإخراجها في ثوب جديد يجمع بين الإتقان والدقة والجمال . . . راجين أن نكون أبداً عند حسن ظن القارىء الكريم . . والله الموفق إلى سواء السبيـــل.

دار مكتبة الحياة



شخصيات الرواية

محمد علي باشا الكبير	: والي مصر
ابراهيم باشا	: ابن محمد علي وخليفته
اسماعيل باشا	: ابن محمد علي
الملك النمر	: ملك شندي في السودان
الامير بشير الشهابي	: حاكم لبنان
أمين بك	: من أمراء المماليك
غريب	: ابن أمين بك
الأميران أمين وخليل	: ابنا الأمير بشير
عبد الله باشا الجزار	: والي عكا
جميلة	: زوجة أمين بك
سالم أغا	: من ضباط جيش ابراهيم
سعيد	: خادم أمين بك

الأمير بشير

لبنان سلسلة جبال شامخة خصبة الاقليم جيدة الهواء ، تشرف على بحر الروم ، تكسو أوديتها المزارع والغياض ، وتتوج قممها الثلوج على مدار السنة . وكانت حكومته الى منتصف القرن الماضي يتولاها أمراء من عشائر مختلفة ، ينتهي نسب أكبرها وأطولها حكماً الى قريش ، وهي عشيرة الأمراء الشهابيين أو بني شهاب .

وقد اتخذ أكثر الأمراء الشهابيين بلدة دير القمر مقراً لحكوماتهم ، وهي واقعة في سفح جبل غربي البلاد ، وتشرف على وادٍ خصب يفصلها عن السفح المقابل لها . وتحدق بها - كغيرها من قرى لبنان - بساتين حافلة بأغراس الكرم والتين والتوت وغيرها .

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، آلت امارة لبنان الى الأمير بشير الشهابي المعروف بالمالطي ، وكان على جانب كبير من الهمة والشجاعة والهيبة حتى ان كثيرين من اللبنانيين ، رغم ما عرفوا به من القوة والجرأة ، كانوا لا يقوون على التأمل في وجهه والوقوف بين يديه أو التكلم في حضرته . وذلك لأنه كان الى جانب ما اشتهر به من العدل والحزم ذا خبرة عظيمة وفراسة قوية . وكثيراً ما كان يكشف دخيلة محدثه من أول نظرة يوجهها اليه . وتروى عنه في ذلك أحاديث غريبة يحفظها ويعجب بها العامة والخاصة . وكان يستعين على تعرف أحوال الرعية والوقوف على اتجاهاتها وميولها برجال من خاصته المعروفين بالحزم والدهاء وحسن الحيلة . يرصدون كل كبيرة وصغيرة من حركات الجماعات والأفراد ، ويبلغونها اليه فتعيها ذاكرته القوية ، وينتفع بها كلما اقتضى الأمر ذلك . وهكذا كان على بينة من كل أمور رعيته ، سريع المثوبة والعقاب ، فساد الأمن على عهده أنحاء جبل لبنان ، وصار الناس يخرجون ليلاً ونهاراً الى أعمالهم ويسافرون من بلد الى آخر ومن مقاطعة الى أخرى ، لا يخشون أي عدوان .

وهناك في السفح المقابل لدير القمر كانت توجد قرية صغيرة تدعى (بيت الدين) فيها معبد لطائفة الدروز ، فابتاعها الأمير بشير وابتنى فيها دوراً ومنتزهات له ولأولاده . وجلب اليها المياه فأصبحت من أبهى المناطق منظراً وأحسنها هواء .

وكان الى جوار بيت الدين دير منعزل ، فيه جماعة من الرهبان يقضون بعض نهارهم في العبادة ، وبعضه في أعمال حقول الدير من حرث وسقي وغرس وحصد وما اليها من انتاج الجبن والزيت والخمر .

ففي مساء ذات يوم من أيام شهر ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨١٢ ، قضى الرهبان معظم نهارهم في جرف الثلوج المتراكمة على اسطح الدير ، ثم دخلوا حجرة فيه فأوقدوا فيها ناراً وأحدقوا بها يستدفئون ويتسامرون، وهم متسربلون بعباءات مشددة بمناطق حول اوساطهم.

ومع أنهم أغلقوا باب الحجرة ونوافذها ، كان يقطع حديثهم بين حين وآخر دوي الرعد وتساقط البرد على جدران الدير ونوافذه ، وقصف الرياح الزوبعية التي تكثر في فصل الشتاء .

وما زالوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى قال رئيسهم : « سمعت اليوم حديثاً أقلقني ، وهو أن اثنين من بني المعلوف في قرية (بسكنتا) قتلا بطريرك الكاثوليك أغناطيوس صروف الدمشقي بالقرب من قرية (زوق مكايل) . وقد تكدر الأمير بشير من ذلك كثيراً ، وهو الآن بسبيل أخذ القاتل ومعاونيه بأشد العقاب » .

فقال أحد الرهبان : « ما أظن أن مثل هذه الجناية الفظيعة قد حدثت إلا بعلم الأمير ، ولا يغرنك تظاهره بالكدر ، فان الشهابيين لا يهمهم قتل كل البطاركة لأنهم ليسوا من دينهم » .

فقال الرئيس : « لعلك لا تعلم أن الأمير اعتنق الديانة المسيحية سراً ؟ » .

فبغت الرهبان جميعاً وقال أحدهم : « كيف كان ذلك ؟ وماذا يخشاه الأمير حتى كتم أمر تنصره ؟ » .

فقال الرئيس : « ان إعلان تنصره تترتب عليه أضرار مادية كبيرة له ، وهذا عدا ما يؤدي اليه اعلان تنصره من خروج بني شهاب كلهم عليه ، لاعتزازهم بانتسابهم الى قريش ، ولعلكم ذاكرون كيف تعرض للعزل مرات في عهد أحمد باشا الجزار » .

فقال الراهب : « لكن كيف يكون مسيحياً ولم نشاهده يزور كنيسة لقضاء الفروض الدينية ؟ » .

فقال الرئيس : « ان الأمير لم يهمل أداء الصلاة المفروضة في ديننا ، وقد خصص لذلك غرفة من غرف قصره ، فجعلها كنيسة يصلي فيها ، ولا يعرف ذلك إلا أفراد قليلون من أخص حاشيته » .

فقال الراهب : « أعتقد أن الدين لا يقر مثل هذه المراءاة، ولا يجوز أن تكون المصالح

الدنيوية الزائلة عقبة في سبل المتدينين المخلصين» .

فقاطعه الرئيس قائلاً : « أغضض من صوتك ، فللجدران آذان ، وانتقام الأمير فظيع سريع كما هو معلوم » .

فقهقه الراهب وقال : « أين نحن وأين الأمير بشير ؟ ان بيننا وبينه أكثر من ميلين ؟ » .

فقال الرئيس : « هذا لا يمنع أن يعلم بكل كلمة وحركة هنا ، وفي أي مكان في أقاصي لبنان ، وهو جالس في قصره ! » .

وما أتم الرئيس كلامه ، حتى سمعت طرقات متوالية على الباب ، فوقع الرعب في قلوب الرهبان حتى لم يستطع أحد منهم النهوض لفتح الباب ، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم ، باحثين عن وسيلة يبرئون بها أنفسهم .

ثم نهض أحدهم وفتح الباب ، فاذا الطارق عبد أسود طويل القامة غريب الزي ، وبجانبه امرأة مبرقعة ، عليها ثياب سوداء حالكة ، وعلى يدي العبد طفل ، وكلهم ينتفضون من شدة البرد ، فسألهما الراهب عن غرضهما فقال الرجل : « هل هذا المكان دير ؟ » .

قال : « نعم » .

فقال العبد : « وهل تقبلوننا عندكم ضيوفاً هذه الليلة ؟ » .

فأدخلهما وأغلق الباب ، ثم قادهما الى الحجرة التي بها الرئيس والرهبان ، فرحبوا بهما ، ولا سيما بعد أن اطمأنوا الى أنهما غريبان آتيان من مكان بعيد ، ويبدو أنهما قاسيا عذاباً شديداً من التعب والبرد .

ثم بدأهما الرئيس بالكلام قائلاً : « الحقيقة أنكما آنستمانا بزيارتكما المباركة ، فمن أين أنتما ؟ » .

فتأوه العبد وقال : « قد أتينا أيها الأب المحترم من بلاد بعيدة » .

فقال الرئيس : « اذن ، نأتيكما أولاً بالطعام » . ثم أمر بعض الرهبان فجاءهما بطعام من اللبن والجبن و (القاورمة) والعسل ، مع أرغفة رقاق ، وبعض الخمر الجيدة المعتقة التي يعز وجودها في غير الأديرة . فأخذا يأكلان ويشربان صامتين ، وأماطت السيدة لثامها أثناء الأكل ، فبدا وجهها كأنه البدر ، ورغم دلائل التعب والشقاء والحزن كانت تتجلى فيه ملامح المهابة والجلال .

فعجب الرهبان من التناقض العظيم بين جمالها وبياضها الناصع وبين قبح وجه زميلها الأسود . وبعد أن انتهيا من الطعام جلسا يستدفئان ويستريحان ، والرئيس يتأمل هيأتهما وملابسهما وحديثهما ، فلاح له أنهما ليسا من لبنان ، والتفت اليهما قائلاً : « هل لي أن أسأل عن سبب مجيئكما الى هذه القرية في هذا الجو المظلم العاصف ؟ قد يكون سؤالي تطفلاً ،

ولكن يلوح لي أنكما من بلاد بعيدة فهل حضرتما من دمشق ؟ » .
فقال العبد : « لا يا سيدي ، لكننا من احدى قرى تلك المدينة ، وفي صباح الغد إن شاء الله نشرح لكما حالنا » .
فقال الرئيس : « حسناً ، انكما في حاجة الى لرقاد الآن ، وقد أعددنا غرفة لراحتكما » .
ثم أمر أحد الرهبان فأخذهما الى غرفة فيها مصباح زيتي ، وعلى أرضها حصير قديم فوقه وسادتان متواضعتان لكنها نظيفتان . واللبنانيون أهل نظافة وترتيب على اختلاف طبقاتهم حتى أفقر الفقراء منهم ، فانك اذا نزلت عنده لا تستنكف من مؤاكلته أو مجالسته أو الرقاد في فراشه .
وجاءهما الراهب بماء ساخن لغسل أرجلهما ثم سألهما : « أأنتما في حاجة الى شيء آخر ؟ » . فقال العبد : « لا نريد إلا دعواتكم الصالحة ولكم الشكر » . فحياهما مودعاً ، وانصرف عائداً إلى الغرفة الأولى ، حيث كان الرئيس والرهبان الذين معه ما زالوا يتساءلون فيما بينهم عن أمر الطارق الأسود وزميلته الحسناء وطفلها ثم قال الرئيس : « نحمد الله على نجاتنا من غضب الأمير بشير ، فقد كنت خائفاً أن يكون الطارق أحد جواسيسه » .
فقال راهب : « وما أدراك أن الضيف العبد ليس من الجواسيس ؟ » .
فقال : « ذلك لا يمكن أن يكون ، اذ يفهم من مجمل حالهما أنهما غريبان ، وفي صباح الغد نعلم الحقيقة » .
وبعد أن أمضوا ساعة أو بعض الساعة ، في مثل هذا الحديث نهضوا ، وانصرف كل منهم الى غرفته .

□

استيقظ الرهبان في صباح اليوم التالي مبكرين كعادتهم ، وسارع بعضهم الى جرف الثلوج التي تراكمت على أبواب الغرف وأسطحها في الليل ، وأخذ الباقون في مختلف الأعمال داخل الدير وخارجه .
أما الضيفان فلم يستيقظا إلا في الضحى ، فحمل اليهما الطعام والقهوة . ثم طلب العبد مقابلة رئيس الدير على حدة ، فأجابه الرئيس الى ذلك فوراً ، وقال العبد : « أعندكم للسر مكان ؟ » .
قال الرئيس : « تكلم ولا تخف شيئاً ، ولعلك تعلم أننا معشر الكهنة ، حفظة للأسرار ، وكل ما نسمعه من الاعترافات يبقى سراً مقدساً » .
فقال العبد : « اني عالم بذلك ، وهذا ما يدعوني الى الوثوق بكم ، والاعتراف لكم بكل

شيء من أمرنا » .
فقال الرئيس : « قل ولا تخش أي شيء » .
قال : « اننا لسنا من دمشق ولا من قراها ، وانما نحن من بلاد مصر وقد جئنا هذه البلاد فراراً من القتل » .
فقال الرئيس : « وكيف ذلك ؟ » .
قال : « ان السيدة التي معي ، زوجة أمير من المماليك الذين كانوا حكاماً في مصر قبل واليها الحالي محمد علي باشا » .
فهز الرئيس رأسه وقال : « قد سمعنا أن محمد علي باشا ذبح بعض أولئك المماليك في السنة الماضية بقلعة القاهرة ، أثناء الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمقاتلة الوهابيين في جزيرة العرب » .
فقال العبد : « نعم يا سيدي ، وكان زوج هذه الأميرة من بين المدعوين الى ذلك الاحتفال فذبح مع من ذبحوا ، ولم نسمع أن أحداً منهم استطاع النجاة . ثم أمر محمد علي باشا بعد ذلك بقتل كل أتباعهم في مختلف جهات مصر ، فخرج العساكر من المصريين والارناؤوط والمغاربة وغيرهم ، وطافوا بقصور المماليك حيث نهبوا وفتكوا بكل من وجدوه فيها » .
فازداد الرئيس اصغاء ، وقرب سمعه من محدثه ، فواصل هذا كلامه وقال : « وقد كنت في بيت ذلك الأمير خصياً من خصيان قصره ، وكنت أحبه حباً عظيًا ، وكانت زوجته الأميرة حبلى ، ولها غلام في السابعة اسمه سليم ، فطلبت الي الفرار بها وبابنها من وجه الموت والعار ، قائلة : (ان صدق الخدمة لا يظهر إلا في مثل هذه الحال) . فحملنا ما خف حمله وغلا ثمنه ، وخرجنا من المدينة في ظلام الليل على جوادين ، وما زلنا نجد في المسير مع صعوبة الركوب على الأميرة المنكودة الحظ حتى بعدنا عن المدينة ووصلنا الى مكان اختبأنا فيه الى الصباح ، ثم واصلنا السير حتى دخلنا حدود سوريا ، ولا تسل عما قاسته الأميرة المسكينة من العذاب والمشقة وما ذرفته من الدموع السخية ، فنزلنا ببلدة غزة ، وزعمنا للناس هناك اننا من بلاد الترك نفياً للشبهة . وبعد بضعة أشهر آن وقت وضع الأميرة حملها فوضعت الغلام الذي جئنا به معنا ، وسميناه غريباً لأنه ولد في غربة » .
فبان التأثر في وجه رئيس الدير ، وأخذ يدير حبات مسبحته الصغيرة بين أصابعه في قلق مكبوت وهو ما زال مرهفاً أذنيه لسماع تتمة القصة ، ومضى العبد فقال :
« فلما تمت الولادة ، أعملنا الفكرة في وسيلة ننسي بها تلك المصائب ، ونعيش في مكان يعزي هذه الحزينة في فقد زوجها ، فعلمنا بالاستقصاء ان جبل لبنان من أفضل ما خلق الله

من الأماكن الجيدة الهواء ، فتاقت أنفسنا الى الإقامة به ، ولا سيما بعد أن سمعنا بهمة أميره وتعهده راحة رعاياه . وكنت فضلاً عن ذلك أرى في سيدتي الأميرة ميلاً الى الاقامة بهذا الجبل ، لغير داعٍ أعلمه . فخرجنا من غزة الى يافا حيث استرحنا فيها زمناً ، ثم شددنا الرحال الى عكا ، وهنا أصبنا بمصيبة لا تقل عن المصيبة الأولى » .

فاشتد تلهف الرئيس لسماع ما يقوله العبد ، وبلغ من تأثره ان تساقطت عبراته ، لأنه كان من ذوي الشفقة والاحساس المرهف . وأتم العبد كلامه قائلاً : تصور أيها الأب المحترم أية نكبة حلت بالأميرة المسكينة ونحن في عكا ، اذ لم يمض على اقامتنا هناك بضعة أسابيع حتى فقدت ابنها الأكبر بطريقة لم نكشف سرها حتى الآن » .

فقال الرئيس : « وكيف ذلك ؟ » .

فقال : « اتخذنا في عكا مسكناً في بعض المنازل على شاطىء البحر ترويحاً للنفس وتجنباً لانكشاف أمرنا ، ورحنا نسأل عن أسهل السبل المؤدية الى لبنان وعن أفضل جهاته للاقامة . وفيما نحن في ذلك طلب سليم الى سيدتي الاميرة أن تأذن له في التنزه مع بعض غلمان الحي الذي كنا نسكنه ، وكان قد رآهم ينزلون البحر بقارب صغير للتنزه ، فأبت والدته خوفاً عليه من الغرق ولكنه ألح عليها حتى قبلت طلبه على أن أذهب معه . فسر بذلك كثيراً ، ثم ذهبنا في تلك النزهة وعدنا الى البر سالمين ، وقد لاحظت في أثناء سير القارب بنا أن الغلام كان يتابع بنظره حركات النوتي وسكناته وطريقة استخدامه المجاذيف ، فأدركت أنه أحب مهنة الملاحة . وما وصلنا الى الشاطىء حتى وجدنا الأميرة في انتظارنا ، فقبلت ولدها وعدنا الى البيت . وشاء سوء الحظ ان كان ذلك النوتي يرسو بقاربه على مقربة من منزلنا فيشده مساء الى صخرة هناك ويذهب الى بيته ، ثم يأتي في الصباح فيحلهو ويذهب به، وهكذا . وفيما نحن في البيت وقد شغلت أنا والأميرة بانجاز بعض المهام لغريب ، انتبهت هي بغتة وسألتني (أين سليم؟) . فقلت لها : (تركته يلعب أمام البيت) . ثم خرجنا نبحث عنه فلم نقف له على أثر فصاحت : (ويلاه قد فقد الولد) . فأخذت أنا أناديه وأستطلع أمره عبثاً ، ثم نظرت الى البحر فلم أر القارب وقد كان منذ أيام لا ينفك مشدوداً بالشاطىء فقلت في نفسي : (لعله ركبه ليجرب قدرته على الملاحة فقذفته الأمواج الى حيث لا نعلم) . أما الأميرة فأخذت تبكي وتندب ولدها وتقطع شعرها حتى أغمي عليها ، وعبثاً حاولت تسكين روعها ، ثم سرت أبحث عن الغلام في جوار المنزل وبعثت منادياً ينشده في الأسواق فلم أقف له على أثر . وبعد أربعة أيام يئسنا من لقائه ، والمصيبة الكبرى اننا لم نكن نستطيع الظهور أمام الحكومة لنطلب اليها البحث عن الغلام خوفاً من كشف أمرنا وكرهت الأميرة البقاء في تلك المدينة ، فغادرناها ونحن في حالة يرثى لها من الحزن والكدر ، والأميرة لا تنفك عن البكاء ليلاً ونهاراً

حتى هدها الحزن والسقم ، وأصاب السقم ولدها الآخر » .

قال ذلك وتساقطت العبرات من عينيه ، فبكى معه الرئيس . ثم عاد العبد الى تتمة روايته فقال : « ولما وصلنا الى صيدا علمنا أن هذه الجهة من أفضل جهات لبنان ، فأخذنا في المسير من قرية الى أخرى حتى صممنا على الاقامة بمكان منعزل ، فهدانا بعض العارفين الى هذا الدير فسرنا صباح أمس على امل الوصول اليكم عند الظهيرة ، ورافقنا رجل من بعض القرى معظم الطريق وكنا كلما سألناه عن المكان المقصود.قال: (ها قد وصلنا فانه لا يبعد أكثر من مرمى حجر أو طول رسن البغل أو مقدار شرب غليون) . ونحن قد أنهكنا التعب وابتلت ثيابنا من الأمطار وقاسينا من البرد أشد العناء ولم يمكننا الركوب لوعورة الطريق . فغربت الشمس ونحن في مكان قيل لنا أنه قرية بيت الدين مسكن أمير هذه البلاد . فلما وصلنا الى هناك أشار الرجل الى مكان هذا الدير وقال : (لا يمكنني الوصول معكما الى هناك) . وودعنا ورجع . كل ذلك والبرد شديد والثلوج متراكمة وقد لامنا كثيرون على قدومنا الى هذه الأماكن في فصل الشتاء ولكن ما قدر كان » .

ورحب الرئيس بمقدم الأميرة ، وأعدا بتقديم كل معاونة ممكنة لها ، فشكره العبد وقال : « وقد حدث بعد أن فارقنا ذلك الرجل أن لقينا رجل آخر متسربل بعباءة سوداء ، يظهر من هيئته انه ليس من عامة الناس ، فسألنا بكل لطف عن الجهة التي نقصدها ، ولما ذكرت له اننا نقصد هذا الدير للوفاء بنذر علينا ، قال : (يلوح لي أنكما غريبان) . ثم صحبنا الى باب الدير . وقال : (هذا هو فاقرعوا الباب يفتح لكم) . ثم ودعنا وانصرف» .

فأوجس الرئيس خيفة من أن يكون ذلك الرجل جاسوساً من جواسيس الأمير بشير ، ويكون قد سمع شيئاً مما قالوه ولكن تأثره بحكاية العبد شغله عن التفكير في غيرها ، فالتفت اليه وسأله : « ما اسمك ؟ ؟ » . فقال : « اسمي سعيد واسم سيدتي الأميرة جميلة » .

فقال : « طب نفساً يا ولدي وقر عيناً ، قد حفظت كل ما ذكرته من سركما في صدري ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعزي الأميرة ويهبها الصبر الجميل على أحزانها ، فاذا شئتما الإقامة عندنا فمرحباً بكما وأهلاً وسهلاً ، وان رأيتما غير ذلك فاني مستعد لقضاء كل ما تحتاجان اليه ، ولا يعنينا أن تكونا مسلمين لا مسيحيين ، فاننا جميعاً نعبد الإله الواحد القهار . وفضلاً عن ذلك فالديانة الإسلامية هي ديانة مولانا السلطان صاحب البلاد » .

□

عاد رئيس الدير مع سعيد الى الغرفة التي بها الأميرة جميلة ليعزيها ، وكان باب الغرفة مغلقاً ، على أنهما ما كادا يقتربان منه حتى سمعا صوت ندبها وبكائها فوقفا خارج الباب صامتين فسمعاها تقول : « وانكبتاه أين أنا الآن وأين زوجي العزيز وأين حشمه وخدمه ؟ وأين أنت يا ولدي سليم ؟ أصرت طعاماً للأسماك وتركت والدتك المسكينة تتقلب على جمر الغضا ؟ . أما كان الأولى بي أن أموت وأستريح من شقاء هذا العالم ؟ . أما من وسيلة يا الهي للنجاة من هذه المصائب ؟ انني أخشى أن أطلع الأمير على حقيقة أمري فيزيده ذلك غضباً علي وينتقم مني ، ولكن لعله يرثي لحالي ويقبل توبتي » .

ثم طرق سعيد الباب طرقاً خفيفاً لئلا يزعجها ، فسكتت عن البكاء وقالت : « من الطارق ؟ » .

فقال : « انى يا سيدتي عبدك سعيد » . ففتحت الباب ، واذا هي في حالة يرثى لها وقد بللت ثيابها بالدموع وحلت شعرها ومزقت ثوبها وخنقتها العبرات حتى كاد يغشى عليها ، فتقدم وأخذ بيدها وأجلسها ، ثم استأذن للرئيس في الدخول فأذنت ، فدخل وقد تعجب من فرط جمالها وزاد ذلك حزنه عليها حتى لم يعد يمكنه امساك دموعه لكنه تجلد وقال : « تجلدي يا ابنتي ، فان الأحزان تجلب الأسقام ، واشفقي على نفسك وعلى رضيعك واتركي الأمر لله ، فهذا سعيد خادمك الأمين قد اطلعني على حقيقة حالك وعاهدته على أن يبقى ذلك سراً بيننا . واعلمي يا ابنتي أني مشارك لكما في جميع أحزانكما ، وسأبذل جهدي في تعزيتك ومرضاتك فاتخذيني لك أباً أو صديقاً » .

وما زال الرئيس يسكن روعها ويعزيها حتى مسحت دموعها متجلدة قائلة : « لتكن مشيئة الله » .

وكانت وردية اللون ، مستديرة الوجه ، سوداء العينين واسعتهما قليلاً مع حدة وذبول ، رشيقة الحركة مع تعقل ووقار .

ثم استأنف الرئيس حديثه قائلاً : « ان رهبان الدير لا علم لأحد منهم بقصتكما ، وهم الآن خارج الدير للعمل في الحقول ، فاذا جاءوا وسألوني عن أمركما فماذا أقول ؟ »

فقال سعيد : « اذا أذنت لي فاني أذكر لهم اننا جئنا من صيدا لوفاء نذر علينا » .

وفيما هم في ذلك سمعوا صوت نداء في الدار فخرج الرئيس واذا بأحد رجال الأمير بشير قد جاء يدعوه اليه في قصره ببيت الدين .

فوقع الرعب في قلب الرئيس ، لكنه تجلد لعلمه ببراءته ، فلبس جبته ، وقلنسوته ومضى حتى أتى القصر فلما وصل الى قاعة المجلس وقعت المهابة في قلبه لأنها على كثرة من فيها لا يسمع فيها صوت وجميعهم جلوس كأن على رؤوسهم الطير . وكان جلساء الأمير لا

يستطيعون أن يتفوهوا امامه بكلمة من تلقاء أنفسهم لعظم هيبته لكن رئيس الدير كان أجرأ من غيره في مجلس الأمير .

وكان الأمير جالساً على مقعد في صدر القاعة ، مسنداً يده الى وسادة فوقها طنبجة محشوة لا تفارق مجلسه . وليس على ذلك المقعد غيره لأنه لم يكن يأذن لأحد في أن يجلس بجانبه . وكان عليه قباء بسيط (قفطان) من صنع دمشق ، فوقه منطقة من الصوف من صنع كشمير ، وقد تقلد في منطقته الدواة والخنجر المرصعين ، وفوق القباء جبة من الفرو الثمين وعلى رأسه اذ ذاك العمامة الكبيرة . أما الطربوش فلم يلبسه إلا في آخر أيام حكمه اذ أصبح الطربوش من ذلك الحين شعار الدولة العثمانية يلبسه كل من يتولى مصلحتها .

وكان الأمير ربعة في الرجال ، واسع الصدر ، عريض الكتفين . أما هيئته فكانت أقرب الى هيئة الأسود منها الى الآدميين ، لأنه كان عريض الجبهة عاليها ، غليظ الأسرة ، له حاجبان يتدلى الشعر منهما على عينين براقتين كأنهما تتقدان ناراً ، وبينهما أنف كبير به انحناء قليل ، تحته شاربان طويلان ولحية متجعدة مسترسلة على صدره ، وقد وخط الشيب شعره قليلاً .

وكانت أرض القاعة مفروشة بالطنافس والسجاد الثمين ، فدخل الرئيس بعد أن نزع حذاءه خارج الباب كما هي العادة ، فرأى الأمير جالساً وبين يديه أصحاب مجلسه فحياه قائلاً : « عم صباحاً يا سيدي الأمير » .

فرد الأمير التحية ، وأذن له في الجلوس ، ثم أمر له بالقهوة والغليون ولم يسر الرئيس هذا الاكرام لقلقه بسبب دعوته الى هذه المقابلة على أثر ما حدث أمس .

ثم نظر الأمير الى الرئيس بعينيه الحادتين اللتين تتجلى فيهما ملامح الشجاعة والذكاء ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة زادته هيبة ووقاراً ، وقال بصوته الجهوري : « يا أبانا ان غرباء نزلوا عليك أمس فمن هم ؟ » .

قال الرئيس : « انهم يا سيدي الأمير قادمون من صيدا لوفاء نذر للدير » .

فقال الأمير : « اتتجاهل الحقيقة أم أنت لا تعلمها ؟ ولكن الأمير بشير لا يخفى عليه شيء كما تعلم » .

فنهض الرئيس على قدميه وقال : « العفو يا سيدي الأمير ، ان سعادتك تعلم أننا عبيد مطيعون مخلصون ، وما عهدت علينا إلا نصدقك القول ، وليس هؤلاء أول من جاءونا لمثل ذلك ، فان الدير مشهور بالكرامة وتأتيه النذور من جميع أنحاء العالم » .

فأقعده الأمير وسأله : « من أي طائفة هم ؟ » . فقال الرئيس : « مهما يكن من أمر طائفتهم فالدير يقبل النذور من جميع الطوائف والملل بلا استثناء ! » .

فضحك الأمير وقال : « جئني بهم » . فقال : « سمعاً وطاعة » . وخرج وهو في حيرة خوفاً على جميلة من غضب الأمير .

فلما وصل الى الدير وجد جميلة وسعيداً قد عيل صبرهما من الانتظار ، فأخبرهما بما كان وشجعهما وقال لجميلة : « انهضي يا ابنتي والبسي أحسن ما عندك وهلمي مع سعيد ، وأنا أسير بكما اليه ، لعل لكما في ذلك خيراً » .

فقالت جميلة : « وكيف نفعل بغريب ؟ » .

قال الرئيس : « نتركه هنا ونوصي به أحد الرهبان » . قالت : « لا لا . لا أفارقه قبل أن تفارق روحي جسدي ، فانه وحيدي ومنتهى أملي ، وقد كفاني من فقدت » .

فقال الرئيس : « اذن نأخذه معنا » .

في بيت الدين

سار الجميع حتى أتوا قصر بيت الدين ، مقر الأمير بشير ، فدخلوا من باب السور الى صحن القصر الخارجي فاذا هو أشبه بميدان متسع محاط بالأشجار ، وفوق عتبته بيتان من الشعر يسجلان تاريخ بناء القصر . فدخلوا من هذا الباب والحراس وقوف هناك يتأملون السيدة جميلة وهي تسير خلف رئيس الدير ومعها سعيد وولدها غريب . ولما وصلوا الى الصحن الداخلي وجدوه مرصوفاً بالرخام ، وفي وسطه بركة رخامية ، وحوله غرف بعضها يؤدي الى مماش تشرف على ما وراء القصر من البساتين والأودية والجبال . وفي صدر ذلك الصحن قاعة الأمير يصعد اليها بدرجات ، والى كل من جانبيها حارس يقف ببندقيته ليمنع الدخول بغير استئذان .

فلما وصل الرئيس عرفه الحراس فلم يمنعوه من الدخول ، فدخل هو أولاً وأخبر الأمير بشيراً بمجيء السيدة وعبدها ، راجياً أن يصرف من في مجلسه قبل أن يأمر بادخالها لئلا تستحي ، فصرف الأمير من في المجلس . ودخلت جميلة فرأت الأمير جالساً على مقعده وقد أشعل غليونه ، وهو بادي الهيبة والوقار وعلى محياه هيئة الأسود . فلما وقع نظرها عليه اضطرب قلبها وارتعدت فرائصها . لكنه هون عليها ودعاها الى صدر القاعة ورحب بها تخفيفاً لرعبها ، ثم استأذن سعيد ودخل وجلس متأدباً قرب الباب .

ونظر الأمير الى جميلة وطفلها وتأمل في ذلك العبد الطويل رفيقها فاستغرب أمرهما ، وقال لسعيد : « ما صلتك بهذه السيدة ؟ » .

فوقف سعيد احتراماً وقال : « انني يا مولاي خادم لها » .

فالتفت اليها قائلاً : « أين هو زوجك يا سيدة ؟ » . فأطرقت ولم تستطع الجواب اذ خنقتها العبرات وأخذت تتساقط على خديها كاللؤلؤ المنثور ، فأثر ذلك في قلب الأمير تأثيراً عظيمًا وأدرك أن زوجها قد مات .

ثم سأل سعيداً قائلاً : « من أين أتيتم ؟ » . فقال : « أتينا من مدينة صيدا ، لنفي بنذر علينا لهذا الدير » .

فقال الأمير : « من أوصلكم الى باب الدير مساء أمس ؟ » . فقال : « أوصلنا رجل لا نعرفه اذ لم نر وجهه تماماً ، على أنه فيما يلوح لي فوق مستوى العامة » .

فقال : « هل تعرفونه اذا رأيتموه مرة أخرى ؟ » . قال : « نعم يا سيدي » .

فتبسم الأمير ، فأدرك سعيد أن ذلك الرجل الذي أوصلهم الى الدير انما هو الأمير نفسه ، فأعجب بسهره على حالة الأمن في البلاد . وطوافه وحده لذلك ، مع كثرة الأعداء المترصدين له في كل مكان .

ثم استأنف الأمير حديثه فقال : « ذكرت أنكما من مدينة صيدا ، ولكن يبدو من لهجتك أنكما من مصر » . فقال سعيد : « ان المرحوم سيدي سكن مع أسرته زمناً في مصر فاكتسبنا اللهجة المصرية » .

قال الأمير : « هل انتما عازمان على العودة الى مصر قريباً ؟ » .

قال : « هذه مسألة فيها نظر ، لأني أرى سيدتي تكره الإقامة بها بعد أن فقدت فيها رفيق حياتها ، وليس لها فيها مصلحة ، على اننا لم نفقد سيدي هناك وحده بل فقدنا معه كل متاعنا . وخير لنا أن نقيم هنا في رعاية مولانا الأمير بقية حياتنا » . قال ذلك ولم يقدر أن يتمالك عن البكاء وكذلك جميلة والرئيس .

أما الأمير فكان ثابت الجنان قوي الجأش فلم يظهر عليه شيء من التأثر ، ثم التفت الى جميلة وقال : « اني أقبلكما في بلادي بكل ترحاب ، بل أدعوك أن تقيمي عندي كأعز من في داري » .

فأشارت جميلة بملامح وجهها انها تقبل الدعوة بالشكر ، ثم استوت على قدميها أمام الأمير كأنها من حور الجنان والدموع ملء عينيها وخاطبته بكل رزانة ووقار قائلة : « اننا نشكر الاله الحي الأزلي الذي هدانا هذا السبيل ، وقادنا الى أعتابك أيها الأمير ، فقد جبرت قلوبنا وخففت مصابنا ، فوجبت علينا طاعتك والانقياد الى أمرك » .

فأشار الأمير الى بعض الخدم أن يذهب بالسيدة الى دار الحريم ، وأوصى بما يلزم لإكرامها ، ثم حمل سعيد ولدها غريباً وخرج خلفها من القاعة ، حيث ودعت الرئيس وقالت له : « لن أنسى يا حضرة الأب فضلك علينا فعسى أن يقدرنا الله على مكافأتك ، فأسألك أن تذكرنا وأن تزورنا من وقت لآخر » فوعدها بذلك وانصرف .

وبعد انصراف جميلة والرئيس عاد سعيد الى الأمير وقبل يديه وأثنى على معروفه ووقف ينتظر أمره ، فاختبره الأمير ، ولما وجد أنه يعرف التركية تكلمًا وكتابة ويحسن العربية . الحقه بحاشيته الخاصة ، فشكر سعيد فضله وخرج .

أما جميلة فخرجت من القاعة الى الصحن الداخلي ، فرأت بجانب باب القاعة باباً كبيراً

مرصعاً بالفسيفساء الجميلة يؤدي الى دار صغيرة بها ممر ينتهي الى غرف الحريم . فأوصلها الرجل الى هذه الغرف وسلمها الى الخصيان فذهبوا بها الى قاعة الاستقبال المفروشة بالسجاد الثمين وفي جدرانها نقوش بديعة . ثم مضى بعضهم لابلاغ زوجة الأمير نبأها ، فجاءت ومعها بعض سيدات القصر لاستقبالها ورحبت بها كثيراً . ولما تأملتها تساقطت العبرات على خديها رغم ارادتها . ثم أخذت غريباً وجعلت تتأمل فيه وتقبله لأنه كان بارع الجمال ، وتداول نساء القصر حمله وجعلن يقبلنه داعيات له بطول العمر ، وأن يحفظه الله من أعين الحساد .

فاستأنست جميلة بذلك ، وان كان قلبها لا يفرح لشيء بعد أن فقدت زوجها ، وولدها وقاست ما قاسته من المشقة والاكتئاب ، ولهج لسانها بالشكر على ما لقيته من الترحاب وحسن المعاملة من زوجة الأمير .

وفي مساء ذلك اليوم ، جاء الأمير الى دار الحريم ، وسأل زوجته عن جميلة ، فقالت : « انها والله لسيدة فاضلة كاملة ليس فيها عيب » . فأخبرها بأمره معها الى أن قال : « ومما حملني على إكرام هذه السيدة فضلاً عن انكسار قلبها وما هي عليه من الكمال ، أني رأيت فيها مشابهة تامة لك ، حتى اني حين شاهدتها استأنست بها وعاملتها معاملة القريب ووجدت في نفسي ميلاً لإكرامها » .

فقالت : « لقد قلت الصواب يا مولاي ، وهي تشبه صديقة لي من بنات عائلتنا عرفتها منذ الصغر رحمها الله . ولذلك استأنست بها ولم أستطع امساك دموعي عند مشاهدتها لتذكري تلك القريبة العزيزة التي ذهبت ضحية تعصب أبيها » .

ثم دعا الأمير جميلة فحضرت وهمت بتقبيل يده ، فأمسكها قائلاً : « أنظري أيتها السيدة ، لقد قدر الله لك أن تصلي الينا ، وان ذلك لمن بواعث سرورنا ولا سيما ان الست (يريد امرأته) قد أحبتك واستأنست بك ، فلك من الآن فصاعداً كل ما تطلبينه ، واعلمي أني أقدم لك كل ما تحتاجين اليه عن رضا ورغبة مني . اذ يظهر أنك من قوم كرام ، ولا حاجة بي الى معرفة نسبك لأني علمت أنك لا تريدين التصريح به عندما كلمتك صباح هذا اليوم ، وانما أسألك أن تقترحي كل ما تريدينه » .

وكان وجه جميلة اثناء ذلك يتقلب بين الاصفرار والاحمرار ، ثم خنقتها العبرات وتنهدت تنهداً خفيفاً . فلما أتم الأمير كلامه قالت له وهي مطرقة : « ليس لي عندك اقتراح ولا وصية إلا ولدي غريب فانه تعزيتي الوحيدة في هذا العالم » .

فقال لها : « طيبي نفساً وقري عيناً فاني سأعامله معاملة ولدي» .

فاستأنفت الحديث قائلة : « وأتقدم لسيدي أن يسمح لي من وقت لآخر بمشاهدة ذلك

العبد الأمين بل الصديق الوفي سعيد ، فانه كان سبباً في حفظ حياتي وقاسى من أجلي مشاق عظيمة » .

فأجابها الى ذلك على أن يذهب اليها مرة في كل أسبوع . فأثنت على فضله وأكبت على يده لتقبلها فمنعها .

□

سكنت جميلة في بيت الأمير بشير مكرمة معززة وكان سعيد يتردد عليها من وقت الى آخر وهي تستأنس به وتتحدث معه فيما بينهما من الأمور التي لم يطلع عليها إلا رئيس الدير . وكان هذا يغتنم كل فرصة لزيارتها وتعزيتها .

أما غريب فكان ينمو ويشب عقلاً وجسداً ، حتى بلغ الثامنة من العمر ، ولكن الناظر اليه كان يظنه ابن خمس عشرة سنة . وكان يظن نفسه ابن الأمير بشير لان أمه كتمت عنه كل ما يتعلق بأبيه . وقد وكل الأمير تعليمه وتثقيفه الى نديمه المعلم بطرس كرامة من علماء حمص ، وكان ذا بصر باللغة والشعر ويعلم الأمير أميناً ابن الأمير بشير .

ورأى المعلم بطرس في غريب ذكاء غريباً ، وقريحة وقادة ، فأحبه وازداد رغبةً في تعليمه لفرط ذكائه ولطف خلقه . وكان طويل القامة على صغر سنه ، حاد العينين كبيرهما ، عريض الجبهة ، رشيق الحركة ، ساكن الجأش حاد الذهن سريع الانتباه .

ولا حاجة بنا الى وصف مقدار فرح والدته به ، ولكنها لم تكن تظهر له استحساناً بل كانت تظهر له انها تنتظر منه أكثر من ذلك .

وكذلك أحب غريب الأمير محبة عظيمة ممزوجة بالاحترام . أما سعيد فكان معجباً بالأمير بشير لأنه لم يشاهد في حياته رجلاً مثله فيمن اختلط بهم من المماليك والأرناءوط والمغاربة والانكشارية . وكان اذا خاطبه في أمر كأنه يخاطب رجلاً أعلى رتبة من البشر فلا يستطيع التكلم إلا مطرقاً ، ولا سيما اذا دخل مجلسه فرآه على كثرة من هناك من الأمراء والمشايخ قد ساده السكون ، فلا يسمع فيه إلا صوته الجهوري آمراً أو ناهياً .

فــي القاهــرة

لما عزم الأمير بشير على السفر الى مصر سنة ١٨٢١ بسبب تهديد والي البلاد إياه بالقتل كان في بلدة خارج بيت الدين ، فدعا ولديه خليلاً وأميناً ليرافقاه . وكان أمين شديد التعلق بغريب لأنه كان رفيقه في التعليم ، فتقدم الى المعلم بطرس أن يستعطف الأمير لعله يأذن لغريب في مرافقته الى مصر . وكان الأمير ممن يصغون الى كلام رجال العلم ، وزد على ذلك أنه كان يحب المعلم بطرس خاصة ويثق به لأنه نديمه ، فقبل الأمير توصيته . كل ذلك وجميلة لم تعلم بشيء . فلما بلغها ورود الأمر بسفر ابنها وقع الرعب في قلبها لأنها تمقت الأرض التي فقدت فيها زوجها وخرجت منها خروج اللصوص . فدعت سعيداً اليها وخاطبته على حدة قائلة : « ما العمل يا سعيد ؟ ان الأمير بعث الى غريب كي يرافقه الى مصر ، وأنت تعلم شدة تعلقي به وكيف زهدت الدنيا من أجله ، ولا يخفى عليك انه صغير السن لم يتجاوز العاشرة ، ثم هو ذاهب الى بلاد قتل فيها أبوه وأقام بها قاتله وسيمر على أرض فقد فيها أخوه » . ثم أطرقت وتنهدت .

فأجابها سعيد : « اصبري ولا تجزعي فان سيدي غريباً لا خوف عليه ، لأنه مسافر مع عصبة قوية من الرجال . وأما انه ذاهب الى حيث قتل أبوه ، فهو غير عالم بذلك ، ولا يعرفه أحد بهذه الصفة في الدنيا كلها إلا رئيس ذلك الدير . ولعل بقاءه هنا الآن أكثر خطراً عليه لأن الأمير سائر الى مصر لاضطراب الأحوال هنا » .

فقالت جميلة بلهفة : « ما هذا الاضطراب » .

فقال : « لا تخافي يا سيدتي ، انها اختلافات سياسية لا تمس الأشخاص » .

فقالت : « ألا تريد أن تخبرني ما هي ؟ » .

فقال : « لا يخفى عليك أن إمارة سيدي الأمير في لبنان تابعة لولاية عكا ، وان عبد الله باشا والي عكا من قبل الدولة العلية . وقد اتحد الاثنان في السراء والضراء ، ثم حدث أن غضبت الدولة العلية على عبد الله باشا لما تقدم ضده من الشكاوى فأمرته بأن يسلم زمام الأحكام ، ولما لم يفعل أمرت درويش باشا أحد وزرائها بأن يخرج الحكومة من يده قهراً ، وقد

بدأ هذا فأخرج امارة لبنان من يد الأمير بشير الى الأمير عباس ، وأراد سيدي الذهاب الى عكا لمباحثة عبد الله باشا في الأمر ، فبعث درويش باشا جنداً يقطع عليه الطريق ، ولهذا عزم على المسير ليطلب وساطة محمد علي باشا والي مصر في عفو الباب العالي عن عبد الله باشا » .

فنهضت جميلة مرتعدة وقالت : « ويلاه يا سعيد ؟ كيف نبقى نحن هنا والبلاد في قبضة أعدائنا وليس لنا من يحمي ذمارنا . يا للفضيحة ! » .

فأجابها سعيد قائلاً : « أجارنا الله من الفضيحة يا مولاتي ، اننا لا نزال في حمى الأمير في أمن من طوارق الزمان ، فان العرين لا تقربه الثعالب ولو غاب الأسد عنه ، ثم ان كل نساء الأمير ما زلن هنا ، وهو احرص على عرضه منه على حياته . وقد علمت أن الأمير عباساً قد عاهد سيدي سراً على أن يحمي ذمار بيته في غيبته ، وعلى أي حال لا أظن أن هذه الحال تدوم ، فقد علمت أن إمارة لبنان خرجت من يد الأمير منذ تولاها الى الآن مرات ثم عادت اليه ، والناس مجمعون على أنه ما من أحد أليق بها منه ، فقد طالما خرجت من يده على يد أحمد باشا الجزار الذي كان يبيع امارة لبنان بيعاً فيسلمها لمن يدفع الرشوة الكبرى حتى انه نفى الأمير بشير وحاربه غير مرة ، ومع كل ذلك لم تثبت امارة لبنان لسواه . وأنت تعلمين كفايته ومحبة الرعية له ، فلا خوف علينا باذن الله ، والذي نجانا من مصر قادر أن يحفظ حياتنا هنا » .

فقالت جميلة : « هل أنت واثق بذلك يا سعيد ؟ » قال : « نعم ، وعلى كل حال أرى سفر سيدي غريب أفضل من بقائه هنا ، كما أننا لا نستطيع مراجعة الأمير فيما طلب لأنه كما تعلمين يكره المراجعة فيما يقوله ، ونحن نعلم يقيناً انه يحب سيدي غريباً كأحد أولاده ، وفي معتقدي أن الولد اذا قاسى مشاق الغربة في صغره يشب محنكاً عالماً بأحوال الدنيا . ويا حبذا لو استطيع مرافقته منعاً لبلبالك ، غير ان دون ذلك موانع عدة منها انني أخشى انكشاف أمري هناك، ولا امن من أن اتركك وحدك. اذ ربما تحتاجين الى خدمتي هنا. أما غريب فسيسير في معية أسد الغاب وبطل هذا العصر فلا خوف عليه باذن الله».

فتنهدت جميلة وقالت : « اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ، وليس لنا إلا الاتكال على الله والتمسك بالصبر الجميل » .

وبينما هما في ذلك اذ دخل غريب ووجهه يطفح سروراً ، فتقدم الى والدته وقبل يدها على عادته ثم قال لها : « ان أبي (يريد الأمير بشيراً) قد بعث الي لكي أسير اليه مع أخي أمين ، ومن هناك نسير جميعاً الى مصر فهيا بنا نذهب » . فقبلته وقالت : « أنا لست ذاهبة معكم يا ولداه ، وانما انتظركم هنا » . فاغرورقت عيناه بالدموع وسكت هنيهة ثم قال : « فليذهب سعيد » . فقال سعيد : « حبذا ذلك يا سيدي ، ولكني باق هنا مع سيدتي ننتظر رجوعكم ،

فعسى أن يحلو لكم السفر لأن بلاد مصر لطيفة ولا سيما في فصل الشتاء » .

ثم ودعته والدته بعد أن قبلته وقالت : « سر يا ولدي في حراسة الله ورعايته ، وأستحلفك ألا تنسى والدتك في سفرك » . فبكى غريب وقال : « كيف أنساك يا أماه وقد ربيتني في حجرك أعواماً ؟ » فقالت : « وأحب منك أن تكتب لي كلما سنحت لك الفرصة وتخبرني عما تشاهده في سفرك تعزية لقلبي عن بعدك » .

وفيما هم في ذلك قرع الباب واذا بالخادم يطلب الأمير غريباً ليسير حسب طلب الأمير بشير ، فنهضت والدته وقبلته ، وودعها وسار مع الرسول ، ومضى مع أولاد الأمير الآخرين وأعين جميلة وسعيد ترافقهم حتى تواروا .

كانت هذه أول مرة سافر فيها غريب خارج لبنان . وقد سار راكباً جواداً مطهماً وقد جعل على رأسه كوفية من الحرير فوقه (الجمدان) المزرر بأزرار القصب . وكان على صغر سنه يحسن ركوب الخيل شأن أولاد أمراء لبنان ولا سيما الأمير بشير ، وكان الركب يلتفتون الى غريب بنوع خاص ويلاطفونه مراعاة لصغر سنه وجماله ودعته ، فاذا وصلوا الى مكان أو قرية قال السياس لبعضهم : « هلم نخبر الأمير غريباً ليتمتع بذلك المنظر » . وكان يقابل ذلك منهم بالبشاشة واللطف والثناء .

وما زال الركب سائرين الى المساء ، فباتوا في احدى القرى ، ثم نهضوا لمواصلة السير في الصباح التالي . وما زالوا بين حل وترحال حتى التقوا بالأمير بشير فسلموا عليه وقبلوا يديه ، وسار الركبان معاً وجدا السير نحو مصر . وكان عددهم ينيف على مائة فارس ومعهم الخدم والحشم ، والناس يتقاطرون من القرى والبلاد الى الطريق لمشاهدة الأمير بشير الذي طالما سمعوا به .

ولما بلغوا الى الشاطىء نزلوا بعدتهم وخيلهم في مراكب سارت بهم الى قرية بقرب دمياط ، فبعث كاشف دمياط يسأل الأمير عن سبب مجيئه ، فأجابه بأنه جاء ليتشرف بمقابلة عزيز مصر . فبعث اليه الكاشف ان يبيت تلك الليلة في القرية وفي الغد يدخل ثغر دمياط ، فنزل الأمير بحاشيته وأولاده في تلك القرية ، وبعث اليهم الكاشف ما يحتاجون اليه من الزاد والعلف ، ثم أعدت لهم الأطعمة وبعد تناول الغداء والقيلولة خرجوا الى الحقول والمزارع يسرحون الطرف في أرض مصر .

أما غريب فأقام بالخيمة ، وقد أعد ورقاً وحبراً وجلس يكتب الى والدته لأن خيالها لم يبرح في ذلك السفر مخيلته مع ما اعترضه في طريقه من لبنان الى مصر من المناظر العديدة المختلفة ، فأخذ يروي لها ما شاهده في سفره ، ويبلغها خلال ذلك عواطف الشوق والحنو .

ولما أتم الكتاب خرج من الخيمة فلم ير أحداً غير الخدم والسياس وقد سرحوا الخيل للمرعى في تلك المزارع ، فتأمل فيما حوله من الأرض فاذا هي مستوية السطح تربتها مائلة الى السواد ، لا شيء فيها من المرتفعات أو الجبال ، فتذكر ربى لبنان وأوديته وينابيعه وقصر بيت الدين وما يشرف عليه منها ثم ذكر والدته وما أوصته به ، فخفق قلبه شوقاً واشتد به ذلك حتى لم يتمالك عن البكاء . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فجعل ينظر اليها من وراء الأفق بما لبسته من الحلل القرمزية والذهبية والفضية مما يأخذ بالعقول ، غير أن ذلك لم يكن ليشغله عن تذكر والدته والحالة التي شاهدها بها في المرة الأخيرة ، فندم على مجيئه وود أن يكون طائراً ليعود الى بيت الدين ليشاهدها ويقبل يدها .

وفيما هو في تلك الهواجس عاد الأمير وأولاده وهم يتحدثون بما شاهدوه من خصب تلك الأرض وطيب زرعها ، فلما وصل الأمير الى فسطاطه رأى غريباً فقال له : « أين كنت يا ولدي ، ولم لم تذهب معنا ؟ » . فاعتذر بأنه كان يكتب كتاباً الى والدته ، ثم دفع اليه الكتاب وقال له : « أسألك يا سيدي أن تبعث به الى والدتي » . فوعده بذلك .

وبعد قليل حضر العشاء فتناولوه وذهب كل منهم الى فراشه طلباً للراحة على أثر ما قاسوه من وعثاء السفر .

وفي الصباح استقبلهم الكاشف مرحباً ، وكان قد بعث بخبرهم الى محمد علي باشا في الاسكندرية ، فأمر بأن يسير الأمير الى القاهرة مكرماً وكتب الى مديره هناك أن يستقبله ومن معه ويقدم لهم الاكرام والميرة ، ويبلغه تهنئته إياه بالسلامة .

فركب الأمير وبطانته حتى وصلوا الى بولاق ميناء القاهرة ، فبعث مديرها لاستقباله حنا البحري الحمصي ، فرحب به وأخبره بأن العزيز في الاسكندرية ، وسيقدم قريباً ثم سار به وبأولاده الى جزيرة الروضة مقابل مصر العتيقة وأنزله في قصر الخازندار .

ولما وصل غريب الى القاهرة أعجبه اتساعها وكثرة الناس فيها لأنها أول مدينة رآها بهذا الاتساع ، فأخذ يسأل من حوله عن كل جديد شاهده ، وكانوا يصفون له ذلك وصفاً دقيقاً ، فلما جاءوا جزيرة الروضة استغرب أمر تلك الجزيرة القائمة في وسط النيل المبارك ، وما زالوا حتى نزلوا القصر على الرحب والسعة وفيه كل ما يحتاجون اليه ، وفي تلك الليلة كتب غريب الى والدته ما حدث له في كتاب آخر .

وفي الصباح ذهب الأمير لمقابلة ابراهيم باشا في قصره بضواحي القاهرة ورافقه ابناه . أما غريب فأوصى به الأمير أحد رجال القصر المدعو أحمد ، وكان فيما مضى من جنود محمد علي ثم تولى خدمة ذلك القصر وكان يخرج بغريب للنزهة أثناء غياب الأمير بشير ، فسر غريب بذلك لأنه لصغر سنه لم تكن تلذ له المقابلات الرسمية .

فخرج به وبعض حاشيته من رجال الأمير ودار بهم حول الجزيرة حيث أراهم المقياس وشرح لهم طريقة قياس النيل به ، ثم ركبوا قارباً عبروا به النيل الى الشاطىء الآخر فأعجب غريب بعظم ذلك النهر ، وكان على صغر سنه مدركاً فطناً لمعرفة حقائق الأشياء ، فكان ينظر وهو في القارب الى كل من ضفتي النيل متأملاً فيما هناك من مزارع الحبوب وغياض النخيل ، حتى نزلوا عند مصر العتيقة فجعل غريب يتأمل مبانيها ويسأل عن كل شيء فيها .

وكان أحمد ينظر الى ذلك الغلام ونباهته وذكائه ولطفه نظرة العجب ، فمروا في أسواق مصر العتيقة الضيقة والناس يشيرون الى ذلك الغلام الغريب الزي بما عليه من الملابس اللبنانية التي لم يكونوا تعودوا مشاهدتها ، ولا سيما ذلك الجمدان المقصب وكميه المرسلين من كتفيه ، فاستوقف غريباً بناء كبير يظهر أنه قديم العهد ، في جدرانه تهدم ، وهو أشبه بالحصون منه بالبيوت ، فسأل عنه احمد فقال له : « ان هذا البناء دير يقال له دير النصارى ، فيه كثير من المعابد النصرانية والأديرة » . فداروا حوله من الخارج مارين ببابه الصغير الذي يتصل اليه بانحدار ، ثم وصلوا الى جداره الجنوبي فاذا فيه برجان هائلان بينهما أثر عتبة علوية لباب كبير فقال غريب : « ان الأديرة في بلادنا على غير ما هي هنا ، فاني لم أشاهد مطلقاً بناء بهذا العظم ولم أر في الأديرة مثل هذه الأبراج » .

فقال أحمد : « صدقت يا مولاي ، و لكن هذا البناء لم يكن ديراً وانما هو في الأصل حصن قديم يقال ان الفرس لما تسلطوا على مصر قبل الميلاد بقرون شادوه ودعوه باسم عاصمة بلادهم اذ ذاك فعرف بحصن بابل ، وفيه حوصر المصريون عندما جاءهم عمرو بن العاص فاتحاً . ثم سكنه الأقباط وغلب عليه اسم الدير » .

فأراد غريب الدخول لمشاهدة ما حواه ذلك البناء فطاوله أحمد كأنه يريد أن يريه شيئاً أعظم ، وسار الجميع حتى مروا بقناطر السباع فشرح له أمرها الى أن قال : « ان الملك الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك بناها لاستجلاب الماء من النيل الى قلعة القاهرة التي تراها بسفح هذا الجبل » . وكان يظهر من معاملة أحمد أنه يحب الاختصار في الحديث وتعجيل السير الى القاهرة . وكان غريب مشغولاً عن ملاحظة ذلك بمشاهدة ما حوله من الحقول الخصبة ، ثم صعد الى إحدى الآكام الخربة هناك فأشرف على قسم عظيم من القاهرة ، عن يمينه جبل المقطم وعند سفحه قلعة القاهرة ، وساروا حتى دخلوا المدينة ومروا بأسواقها .

وكان غريب يعجب من كثرة الازدحام فيها ، وكانت القاهرة في ذلك العهد ضيقة الطرق ليس فيها شيء من الشوارع الحديثة المفتوحة أو المبنية على النمط الجديد ، ولم يكن فيها شيء من الأشجار التي تحف بشوارعها الحديثة الآن . فان جهات الاسماعيلية والفجالة

وشبرا والتوفيقية وسائر هذه الضواحي كانت كلها حدائق وبساتين وآكاماً ومستنقعات قلّما شوهدت فيها المساكن والبيوت .

وقد كان من أعمر الشوارع اذ ذاك وأطولها ، الشارع الممتد طولاً من باب الحسينية الى باب سعادة ، والشارع الممتد الآن على موازاة ذاك أوله عند باب الشعرية وآخره عند باب السيدة زينب .

□

ما زال غريب ومن معه سائرين حتى وصلوا الى بركة الأزبكية فاذا بها حديقة شائقة تحيط بها ترعة محفوفة بالأشجار ، فمروا على جسر الى داخل الحديقة ، فرأوا الناس يتراكضون اليها مزدحمين فالتفت أحمد الى غريب قائلاً : « هذه بركة الأزبكية ، وقد اتفق وصولنا في وقت احتفال يقال له (الدوسة) فلنغتنم الفرصة لمشاهدتها . ولكن يجب قبل كل شيء أن تحترس من النشالين الذين يسرقون أموال الناس من جيوبهم وأيديهم ولا يشعر أحد بهم ، والأحسن أن توصي أتباعكِ بذلك » . فاستخف غريب بهذا التحذير ولكنه تقبل النصيحة بالشكر .

ثم قال أحمد : « أترى يا سيدي هذا الشيخ ذا العمامة ، الراكب على هذا الجواد الأصيل الذي تراه يخطو كالعروس ؟ » قال : « نعم » قال : « هذا هو شيخ السعدية ، وعما قليل تراه يمر بجواده فوق ظهور الناس » . ثم أوقفه على مرتفع ليتمكن من النظر . وبعد برهة رأى غريب الرجال ينامون منبطحين على وجوههم متجاورين بحيث تألف منهم جسر من الرجال ، ثم جاء ذلك الشيخ وأمامه رجلان ممسكين بلجام جواده يقودانه نحو ذلك الجسر . فأحجم الفرس أولاً ثم تقدم ماشياً على ظهور الناس ، والقائدان أمامه ممسكان بلجامه فأخذ يخطو على مهل ، وكلما خطا على رجل نهض ذلك الرجل وراءه تبركاً به . فدهش غريب لهذا المنظر وقلبه يختلج خوفاً على أولئك الرجال من الأذى ، ولكنه ازداد دهشة حين علم أنهم لم يصب أحد منهم بسوء .

وكانت الشمس قد صارت في الهاجرة فقال أحمد : « قد حان وقت الظهر يا سيدي ، ونحن على فرسخ من القصر ومرادنا مشاهدة ما بقي من المدينة ، فهل تقبلون دعوتي لتتناولوا طعام الظهر عندي في منزلي وهو قريب من هنا ، وبذلك نستطيع اتمام تفرجنا اليوم ونعود في المساء الى القصر ؟ » .

فأجاب غريب الدعوة ، وسار الجميع حتى أتوا شارعاً دخلوا حارة فيه اسمها حارة قيسون . فوصلوا الى باب كبير عنده بواب بعمامة بيضاء ، فناداه أحمد فلما حضر همس في أذنه أن يخبر من في البيت من النساء بأن رجالاً غرباء سيدخلون البيت ، ثم دخل أحمد وغريب

ورجاله الى صحن مكشوف في صدره باب صغير دخلوا منه الى دار تتصل بغرفة الاستقبال فولجوها وجلسوا على المتكآت ، فقدمت لهم القهوة ثم تناولوا الطعام جلوساً على بساط حول مائدة عليها أنواع المطبوخات وفيها الملوخيا والأرز واللحوم المقلية ، ثم قدمت لهم القهوة مرة ثانية .

وسأل أحمد الأمير غريباً : « هل يتوسد سيدي للقيلولة ؟ » . فلما قبل قاده الى طابق علوي ودخل به الى حجرة مشرفة على بيت آخر مقابل لذلك البيت ، فنزع غريب بعض ثيابه وتوسد .

ولم يكد غريب يضطجع حتى سمع لغطاً يتخلله صوت امرأة تنوح وتندب ، فأصاخ بسمعه فاذا اللغط في البيت المقابل ، فأطل من النافذة فرأى امرأة كالبدر جمالاً تستجير من رجل رث الثياب يضربها ، فتحركت في قلبه عواطف الشهامة والمروءة فأمر بعض من معه من اللبنانيين أن ينزلوا لانقاذ المرأة من يد ذلك الرجل ، فنزلوا بأسرع من لمح البصر بعد أن سألوا أحمد عن الطريق فأخذهم الى باب البيت بعد أن اوصاهم ألا يخبروا أحداً بذلك ، وعاد الى غرفة غريب فاذا به مطل من النافذة ينظر الى ذلك الرجل وقد كاد يتميز غيظاً حتى هم بأن يلقي بنفسه من تلك النافذة لنصرة تلك المرأة .

فلما دخل أحمد انتبه غريب فالتفت اليه قائلاً : « ما هذا الوحش ، وكيف يضرب هذه المسكينة ؟ » .

فقال : « ان لهؤلاء يا سيدي قصة سأتلوها عليك الآن » . ثم سمعا صوت رجال غرباء في تلك الدار وقد دخلوا وضربوا الرجل وخلصوا المرأة وجاءوا بها الى بيت الحريم . كل ذلك والرجل ينادي بأعلى صوته قائلاً : « انى لكم أن تأخذوا امرأتي مني ، أليست ملكي ولي أن اتصرف فيها كيف أشاء ؟ فتعجب غريب من هذا القول والتفت الى أحمد قائلاً : « أصحيح أنها امرأته ؟ »

قال : « نعم يا سيدي وان كانا مختلفي الرتبة والذوق . وسبب ذلك أنه حكم هذه البلاد منذ بضعة قرون جماعة من الشراكسة وغيرهم يقال لهم المماليك كانوا في أول الأمر خدماً في دور الخلفاء العباسيين وغيرهم ، يرسلون اليهم من ولاتهم في تركستان مع هدايا أخرى بدلاً من الجزية فلما اعتنقوا الديانة الاسلامية وتعلموا ، أحبهم الخلفاء وعهدوا اليهم في مصالح الدولة فقلدوا بعضهم ولاية الخراج وبعضهم امارة السر وغيرها . وما زالت أنفسهم تتوق الى السلطة وحب السيادة حتى تأتى لهم ذلك في أواخر الدولة العباسية فصاروا أمراء ، ولكنهم أرادوا الاستبداد فسعت الحكومة العثمانية الى ابادتهم فلم تفز ، حتى كانت أيام أفندينا محمد علي باشا عزيز مصر الحالي فعمد منذ اثنتي عشرة سنة الى ذبحهم عن آخرهم في القلعة ، ثم

أمر بالاستيلاء على كل ما يملكونه من المال والمتاع ، واذن لرجاله من الجند وغيرهم في التزوج بنسائهم ، فأصبح هؤلاء النساء في حالة هي شر من الموت عليهن ، لأنهن بعد أن كن في عز وفخر أصبحن اماء لرجال لم يكن يقبلنهم عبيداً لهن ، هذه المرأة كانت من نساء أمير من هؤلاء الأمراء فكان نصيبها التزوج بهذا الرجل ، وهو من عساكر العزيز ، فتراه ناقمًا عليها يضربها لأقل سبب . وقد مضى على هذه المسكينة عشر سنوات أو أكثر وهي في مثل هذا العذاب يأتيها كل ليلة وقد أسكره الحشيش والخمر فيعاملها كما رأيت » .

فتأوه غريب لهذه القصة حتى كاد يبكي . وفيما هم في الحديث دخلت خادمة تقول لسيدها : « ان السيدة كاملة تريد الدخول لتكلم الأمير » . فسأل غريب عن تلك السيدة فقال أحمد : « هي المرأة التي نحن بصددها » . فقال : « دعوها تدخل » . فدخلت والدموع ملء عينيها وترامت على قدمي غريب قائلة : « اني ملتجئة اليك يا سيدي ، فأتضرع اليك ورأس أبيك أن تنقذني من هذه الورطة فتأمر رجالك بأن يحملوني من هذا المكان الى حيث تشاءون فأتخلص من هذا الانسان المتوحش » . وكانت تقول ذلك وهي تجهش بالبكاء ، فازداد قلب غريب رقة وحنواً فأنهضها وأجلسها قائلاً : « لا تخافي يا خالتي ، أنا أكلم أبي الليلة ان شاء الله وأستحلفه أن يخلصك من هذا الرجل فتذهبي معنا الى لبنان » . قالت : « يا حبذا ذاك » . ثم قال لأحمد : « أتريد أن تبقيها في بيتك الى الغد حتى نرى أبي ونكلمه ؟ » . قال : « حسناً وانما أخشى تبعة ذلك » . فقال غريب : « لا تخف فانني أخبر أبي بحقيقة الأمر » .

فتقدمت السيدة وقبلت يد غريب راجية ألا ينسى فوعدها بذلك وقد امتلأ قلبه شفقة عليها . أما زوجها فكان قد خرج يريد عرض دعواه على أغا الضابطية ، فقيل له : « ان دعواك مع ابن الأمير بشير الذي هو صديق حميم لعزيز مصر » . فتوقف على أمل أن يسترجع امرأته باللطف .

ثم خرج غريب ومن معه ، وظلوا يطوفون بالمدينة حتى وصلوا الى قلعة الجبل فقال أحمد : « هذه قلعة الجبل ، مقر ديوان الحكومة ، وفيها قتل المماليك كما أخبرتك » .

فلما وصلوا الى بابها اعترضهم حارس عليه لباس لم ير غريب مثله ، وهو تنورة بيضاء كثيرة الزم والتجعد لا تتجاوز الركبتين ، وعليها منطقة من الحرير الملون قليلة الشد ، وفوق ذلك الجمدان الجوخ المزرر ، وعلى رأسه طربوش طويل مثني الى الوراء تتدلى منه طرة طويلة ، وفي منطقته غدارتان وطنبجة وخنجر ، وقد تقلد سيفاً محدباً . وكان طويل النجاد مستوي القامة كبير الشاربين حاد العينين تظهر عليه ملامح الشجاعة والنشاط ، فخاطبه أحمد يستأذنه في الدخول فأذن له ، فلما دخلوا سأل غريب عن ذلك الرجل . فقال أحمد : « هذا

من جماعة الأرناءوط وهم من جنود جهات ألبانيا في الروملي ، وكان منهم تحت قيادة محمد علي باشا أول حكمه مصر أربعة آلاف وكانوا له عوناً في كثير من أعماله » .

وكان دخول غريب ومن معه من باب العزب المشرف على الميدان ، ويوصل اليه بمرتفع بتل منبسط . فقال أحمد لغريب : « ان لهذا التل وهذا الباب حكاية سأتلوها عليك » . ثم دخلوا الى مضيق صخري في القلعة القائمة على سفح الجبل ، أدى بهم الى أبنية القلعة وكأنها بلد صغير لسعتها ، فلما صعدوا الى أعلى ذلك المضيق قال أحمد : « هذا هو المكان الذي ذبح فيه الأمراء المماليك ، وكانوا أكثر من أربعمائة قد أتوا بالملابس الرسمية مدعوين لتناول القهوة في قصر القلعة احتفالاً بخروج طوسون باشا ابن محمد علي باشا لمقاتلة الوهابيين في شبه جزيرة العرب باشارة من مولانا السلطان . فتناولوا القهوة في القاعة التي ستشاهدونها في صدر القلعة حيث مجلس العزيز ، وقد وقف الرجال صفوفاً للخروج بالموكب ، وكان العزيز قد تواطأ مع قواده على اهلاكهم فلما اقترب الموكب من هذا الباب حوصر المماليك في هذا المضيق ، وأحاط بهم الارناءوط من جهة والمغاربة من أخرى ، ثم أغلقت أبواب القلعة بغتة وقتل هؤلاء المماليك عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا أمير عاقه شأن من شؤون بيته فجاء الاحتفال متأخراً فلما وصل الى الباب وكان الموكب آتياً للخروج اختار التربص خارجاً حتى يخرج الموكب فيسير في أثره فوقف بجواده خارج هذا الباب فوق ذلك التل المنبسط ، ولم يمض إلا القليل حتى سمع اطلاق الرصاص ورأى الأبواب قد أغلقت ، فعلم أنها مكيدة وهمز جواده طالباً الصحراء فراراً من الموت ، ولم نعد نسمع عنه شيئاً » .

جرى هذا الحديث وغريب ومن معه سكوت يصغون الى أحمد ، ثم أتموا مشاهدة القلعة وما فيها من المشاهد كدار الضرب (الضربخانة) ومخازن الأسلحة ، وبئر يوسف صلاح الدين الأيوبي باني القلعة .

ثم جاء بهم أحمد الى مرتفع أشرفوا منه على القاهرة فاذا هي متسعة كثيرة المباني تحيط بها البساتين المغروسة بالنخل ويتخلل منازلها الحدائق ، ولكنهم لم يروا في جوها الصفاء المعهود في جو سوريا لما يتخلل هواء القاهرة من الغبار المتصاعد من الطرق . وشاهدوا وراء كل ذلك نهر النيل المبارك وقد تكسرت على سطحه أشعة الشمس فأكسبته رونقاً بديعاً ، وقد دهشوا لكثرة المآذن التي تعد بالمئات .

وغادروا القلعة وقد آذنت الشمس بالمغيب فأحضر لهم أحمد حميراً ليركبوها قائلاً : « ان ركوب الحمير هنا رياضة لطيفة » . فركبوها وعادوا إلى مصر العتيقة

وسارع غريب الى الدخول على الأمير ، وكان قد عاد قبلهم ، وقبل يديه ، فأجلسه

بجانبه وسأله عما رآه ، فقص عليه أحمد قصة تلك المرأة المسكينة ملتمساً منه انقاذها . فقال الأمير : « ما لنا ولها يا بني ؟ اننا في بلاد غريبة » ولكن غريباً ألح عليه في ذلك حتى قبل .

وبعد العشاء ، مضى غريب الى حجرته وكتب الى والدته بما شاهده .

غـريب وأمـين

في صباح اليوم التالي جلس الأمير بشير لتناول القهوة وبجانبه خاصته وبينهم ولداه : أمين وخليل وغريب . وكان مقطب الوجه فاستولى السكوت على الحاضرين ولم يجرؤ واحد منهم أن يسأله عن سبب ذلك ، أو أن يخاطبه في شأن الزوجة المظلومة التي وعد غريباً بانقاذها .

وفيما هم في هذه الحال جاء أحد حراس القصر ، وقال : « ان حنا البحري بالباب » . فنهض الأمير لاستقباله مرحباً به وأجلسه بالقرب منه .

وبعد تبادل التحيات قال حنا البحري : « ان العزيز بعث الى مديره بمصر يأمره بارسال سعادتكم الى بني سويف في الصعيد حيث تمكثون في طمأنينة ريثما يعود أفندينا من الاسكندرية فتنالون بغيتكم » . ثم أفهمه أن العزيز أمر له بعشرة آلاف قرش شهرياً والعلف الكافي للخيل والدواب .

فسر الأمير ، وأمر بالتأهب للرحيل ، فأعدت الذهبيات والقوارب لنقل الرجال والأمتعة والزاد ، بطريق النيل ، فركبوا جميعاً وأخذوا يقلعون نهاراً ويرسون ليلاً على الشاطىء ، ومعهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب .

وكان غريب دائم الاستفهام عما يشاهده على ضفاف النيل من الآثار ، فلما مروا بالجيزة رأى من ورائها الأهرام العظيمة ، وسأل عنها أحد الملاحين فأجابه بقوله : « انها مبان هائلة من صنع الجان » . فلم يعبأ بقوله ، وما زال يسأل حتى علم أنها قبور شيدها القدماء من ملوك مصر ، اعتقاداً منهم بأن أجسادهم المحنطة ستعود لها القوة بعد أجيال ، وقد بنوا هذه الأهرام لحفظها من طوارىء الحدثان حتى يأتي زمن بعثها .

وفي ذات مساء رست بهم الذهبيات على الشاطىء ، وأشار الأمير بالنزول الى البر لتفقد المنطقة التي بلغوها . فكان مما لاحظه غريب أن النيل يجري في أرض خصبة يحدها من الشرق والغرب جبلان يمتدان طولاً على موازاة النيل ، فأدرك لماذا سمي الصعيد بوادي النيل . وفيما هو يقارن أرض مصر بأرض لبنان تذكر أمر المرأة التي وعد بانقاذها ، فسارع الى الأمير ،

فرآه جالساً أمام الخيمة التي نصبت له على ضفة النيل ، وخاطبه في شأنها ، فأجابه قائلاً : « قد أخبرت حنا البحري بأمرها ، وكلفت أحمد أن يساعده في العمل لانقاذها ، وأكبر الظن أنها ستطلق من زوجها ويترك لها أمر اختيار محل اقامتها ، ونحن يا ولدي لا نستطيع أن نحملها معنا حيثما توجهنا ، اذ ليس معنا أحد من الحريم ، وأنت تعرف تقاليد هذه البلاد وتحجب نسائها » . فقبل غريب يد الأمير وشكره .

وفي صباح اليوم التالي عادوا الى مراكبهم ، وأقاموا بها ، فراحت تسير ببطء مع أن الريح هادئة لأنها كانت تسير ضد مجرى النيل . وبذلك أتيحت الفرصة لغريب لكي يمتع نظره بمشاهدة القرى والحقول والنخيل .

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا مدينة بني سويف فتلقاهم كاشفها بالترحيب ، وأنزلهم بدار أعدت لذلك في بلدة الفشن على ضفة النيل .

□

كان الأمير بشير قد جاء معه من الشام بعدد كبير من أصائل الخيل ، أهدى منها الى العزيز خمسة جياد ، وخصص بعض ما بقي منها لركوبه وركوب أولاده وخاصته .

فلما استقر المقام بهم في الفشن ، اشتاقت نفسه الى الفروسية فأرسل يسأل الكاشف عن ميدان للعب الخيل ، فأخبره بأن في البر الشرقي وراء الجبل سهلاً رملياً يصلح لذلك .

وفي اليوم التالي بكر أتباع الأمير فنقلوا الخيل والخيام الى ذلك السهل في الضفة الأخرى . ثم لحق بهم هو وأولاده والكاشف وبقية الأتباع والخدم ، ومعهم ما يكفي الجماعة كلها من الطعام والشراب طول اليوم ، مع علف الخيل ، وغير ذلك من الأدوات والمعدات .

وكان وصولهم الى هناك بعد شروق الشمس بقليل ، فتركوا الخدم والأتباع ينصبون الخيام ويفرشونها ويعدون الموائد وما اليها ، ومضى الأمير على جواده ومعه أولاده وخاصته على جيادهم ، وراحوا جميعاً يتسابقون .

وكان غريب قد تدرب على الفروسية وأتقنها منذ كان في السادسة من عمره ، فاذا ركب جواده صار كأنه والسرج قطعة واحدة ، كما تعلم رمي الجريد ، واللعب بالسيف والترس وغيرهما ، فجعل يركض جواده وقد سدل الكوفية على رأسه اتقاء الحر ، ويبدي من ضروب الفروسية ما أذهل الجميع ولا سيما الكاشف ورجاله ، فامتدحوا شجاعته وهمته ، مما زاده قوة ونشاطاً ، وما زال كذلك حتى تعب جواده فترجل عنه ، ومشى الى حيث كان الأمير والكاشف يقفان لمشاهدة ألعابه ، فقبله الأمير مهنئاً وأثنى عليه الكاشف كل الثناء .

وأعجب غريب بجواد الكاشف ، فسأله : « هل تأذن لي في ركوبه لتجربته ؟ » .

فلم يسعه إلا إجابة طلبه ، ولكنه حذره جموح الجواد قائلاً : « انه اذا جمح لم يثنه شيء » . فضحك غريب وثارت في رأسه حمية الشباب فاعتلى صهوة الجواد ، وكان الفرسان جميعاً قد ترجلوا فوقفوا بالقرب من الأمير بشير والكاشف ينظرون الى الفارس الصغير في عجب واعجاب .

وما كاد غريب يستقر على متن الجواد حتى شعر بأنه جموح ، ولكنه أبى إلا أن يركضه وهمزه بقوة فجمح واتجه به صوب الصحراء كأنه الريح ، وحسب الواقفون أن ذلك كان بارادة غريب وانه لا يلبث أن يرجع به ، ولكنه أوغل في الصحراء حتى توارى عن الأبصار ، فصاح الأمير بشير برجاله قائلاً : « قد ضاع الغلام فهلم اليه » .

فركب جماعة منهم جيادهم واقتفوا أثره ، ووقف الأمير ينتظرهم وكأنه واقف على جمر الغضا لشدة قلقه وخشيته على غريب .

وكان الطعام قد أعد ، فلما طال انتظارهم رجوع غريب ، جلسوا لتناوله لعلهم يرونه راجعاً . فمضت ساعتان ولم يظهر هو ولا أحد ممن اقتفوا أثره ، والتفت الأمير الى الكاشف فاذا به أصفر الوجه مضطرب لا يستطيع أن يتفوه ببنت شفة فقال له : « ما رأيك في اختفاء غريب ؟ » .

فقال : « الله أعلم يا سيدي ، على أني أخبر سيادتكم بأن جوادي الذي جمح به لم أشتره إلا منذ بضعة أيام من أحد الأعراب ، وقد قيل لي انه جموح صعب المراس » .

فقال الأمير : « هل تعرف أين يقيم الأعرابي الذي ابتعته منه ؟ » .

قال : « أعرف أنه من عرب بني واصل القاطنين في هذه الصحراء » .

فوقف الأمير وصاح قائلاً : « لا بد من أن الجواد مضى الى حيث كان في مضارب تلك القبيلة ، فهل عندك أحد يعرف الطريق اليها ؟ » .

قال : «نعم ، ولكن الطريق صعب خطر » .

قال : « اننا لا نعرف الخطر ولا الخوف ، فائتني ببعض الخبيرين الذين يعرفون الطريق وأنا أسير بنفسي للبحث عن غريب » .

فنهض خليل وأمين ابنا الأمير وقالا : « نحن نذهب في هذه المهمة » .

فقال رجال الأمير : « لن يذهب للبحث عنه غيرنا » . وهموا بالركوب فأبى الأمير أمين إلا أن يكون معهم ، لأنه كان يحب غريباً محبة عظيمة ، وهو الذي سعى في احضاره الى مصر . وسرعان ما ركب جواده ومضى في مقدمتهم مع الأدلاء الذين جاء بهم الكاشف ،

وقد آلى على نفسه ألا يرجع إلا ومعه غريب .

□

انقسم الفرسان فريقين : « أحدهما سار شمالاً والآخر سار جنوباً . وكان الأمير أمين في القسم الجنوبي ، ومع كل من الفريقين خبير عارف بالطريق . واتفق الخبيران على أن يلتقي الفريقان عند الغروب في موضع بين الجهتين .

ولما جاء الغروب ولم يعد أحد منهم زاد قلق الأمير بشير ، والتفت الى الكاشف فاذا هو غارق في الهواجس ، ولما سأله فيم يفكر ؟ قال : « أرى يا سيدي أن الأمير أمين أخطأ بمسيره في عدد قليل من الرجال ، لأن البدو القاطنين في هذه الصحراء قطاع طريق ، والحكومة لم تستطع اخضاعهم حتى الآن ، وكثيراً ما يهاجمون هذه البلاد وينهبونها رغم سطوة أفندينا العزيز وقوته التي سحق بها المماليك ، فهؤلاء العرب ما زالوا من الخونة العاصين ، وقد اعتاد المماليك قبل مهلكهم أن يلتجئوا اليهم في حال فرارهم من وجه الحكومة ، فلا نعلم ما تكون ارادة المولى » .

وكان الكاشف يتكلم وعينا الأمير بشير تتقدان ، وأصبح منظره كالأسد الكاسر ثم التفت الى الكاشف قائلاً : « ما دامت الحال كما ذكرت فلا بد لي من الركوب مقتفياً أثر أولئك الرجال ، فربما يكونون في شدة ، على أني أعلم يقيناً أنهم أشداء لا خوف عليهم ، وبينهم رجال من بني الدحداح هم فرسان مشهورون ، ولكن يجب علي تتبع أثرهم اذا غربت الشمس ولم يعودوا » .

وحاول الكاشف أن يثني عزمه ، فأصر وأمر أن يسرج له على الجواد وفيما هم على هذه الحال نظروا فرأوا في عرض الأفق عثيراً ظهر من تحته فرسان فاستبشروا ، ولما اقترب الفرسان تبين أنهم قليلو العدد وليس فيهم الأمير أمين ، فسألهم الأمير بشير عنه فقالوا : « ان الأمير أميناً لم يشأ الرجوع معنا ، وآلى على نفسه ألا يرجع ما لم يقف على خبر الأمير غريب ، وقد دفع الينا بهذا الكتاب » .

فتناول الأمير الكتاب وفضه فاذا هو يقول فيه :

« سيدي وملاذي . . أقبل يديك . وبعد فلم أتأخر عن الرجوع اليكم إلا لأننا لم نهتد الى غريب بعد ، وأنا أشعر بأني السبب في مجيئه الى مصر ، ولذلك آليت على نفسي ألا أرجع إلا بعد أن أجده ، فألتمس منك المعذرة ، فاني ما خالفت أمرك ولكني غير قادر على الرجوع اليكم دون أخي غريب، وقد أبقيت معى عشرين فارساً من رجالنا، والسلام عليكم. . .

ولدك المطيع امين »

فالتفت الأمير الى حامل الكتاب وقال له : « أين تركتم أميناً ؟ » .

فقال : « اننا بعد أن تركناكم انقسمنا قسمين ، فسار بعضنا شمالاً ، وسار الباقون جنوباً . واتفقنا على أن نلتقي عند الغروب في موضع متوسط فيه ماء لنعلم عاقبة سعينا . فسرنا نحن نحو الشمال وبحثنا طويلاً فلم نقف لغريب على أثر ، فعرجنا نحو الملتقى ، فالتقينا بالأمير أمين ورجاله ، وعلمنا أنهم لم يكونوا أحسن حظاً منا ، لكنهم رأوا أن يقصدوا قبيلة بني واصل في هذا المساء ، وهي بالقرب من المكان الذي التقينا فيه ، فربما كان الجواد قصد الى هناك على عادة خيول العرب ، وقال لنا الأمير أمين : « الأصوب أن تسيروا وتخبروا أبي بما كان ودفع الينا هذا الكتاب فأتينا به الى سعادتكم » .

فاضطرب الأمير بشير عند سماع ذلك ، وأطرق هنيهة ثم قال : « خير لنا أن نتكل على المولى القدير ، وهو قادر أن يرد ضائعينا ويحفظنا » .

فسأله الكاشف : « أتريدون الرجوع الى البلدة ؟ » . فقال الأمير : « كيف نبيت نحن في القصور وأولادي في الصحراء تحت الخطر الشديد ، ولعلنا نحتاج في منتصف الليل الى أن نسير في أثرهم ، فلنبق هنا لنرى ما يكون » .

وبعد تناول العشاء اجتمع الأمير بشير وولده خليل في خيمة ، وهما شاعران بأن الدنيا كلها ظلام لتغيب الأميرين أمين وغريب ، وخشية الخطر عليهما . ثم أخذا يتبادلان الحديث ويتشاوران فيما ينبغي عمله لانقاذ الأميرين الغائبين .

□

بقي الأمير أمين ومعه الفرسان العشرون مرابطين في الموضع الذي التقوا فيه بزملائهم قرب الماء ، وكان الليل قد أظلم ، فشاورهم في الأمر ، فاذا هم متشجعون جميعاً إلا الخبير فبدا في خوف عظيم وتقدم الى الأمير أمين قائلاً : « اننا الآن في خطر ، وقلما جاء جماعة الى هذا المكان ونجوا ، لأن عرب هذه الجهات فرع من عرب العبايدة المشهورين ، والقبيلة التي تقيم بالقرب من هنا تعرف بقبيلة بني واصل ، وهم على جانب عظيم من البأس ، وسعادتك تعلم أن هؤلاء البدو لا يهابون أحداً ، ويعيشون على النهب والسلب ، واني أضن بسيدي أن يلقي بنفسه في هذا الخطر العظيم » .

فالتفت اليه الأمير أمين وقال : « اني عالم بكل هذه الأخطار ، ولست أجهل شيئاً منها ، وان كنت تراني شاباً فقد اختبرت واختلطت بأمثال هؤلاء كثيراً في جهات الشام ، وانما أطلب اليك أن تتشجع وتصدقني الخدمة » .

ثم التفت الى رجاله وقال : « ماذا ترون ؟ » .

فقالوا : « نحن عبيدك وأرواحنا رهن أمرك ، وكلنا فداء الأمير غريب » . فشكرهم ، ثم رتب مسيرهم ناصحاً لهم بأن يحرصوا على أن يكونوا قريبين من بعضهم بعضاً .

ثم ركبوا خيلهم وساروا في ظلام الليل ، قاصدين قبيلة بني واصل ، وقد شرعوا سلاحهم للدفاع ، وجعلوا في مقدمتهم رجلاً يحمل مشعلاً متقداً استئناساً بالنور وإيهاماً لمن يراهم بأنهم من أهل المنطقة .

وبعد مسير نحو ساعتين ، لاح لهم شبح كأنه فارس سائر على مقربة منهم نحو اليمين فأمر الأمير أحد رجاله أن يقتفي أثره ويسأله عن أمره ، فمضى وعاد قائداً جواداً ليس عليه إلا السرج فلما رآه الخبير صاح بأعلى صوته قائلاً : « هذا جواد الكاشف ، فأين الأمير غريب ؟ » .

فوقف الجميع وتقدم الأمير أمين نحو الجواد وتأمله ، فلما تحقق أنه جواد الكاشف اغرورقت عيناه بالدموع ، فقال أحد فرسانه : « ربما كان الأمير غريب قد سقط عن الجواد في الطريق » .

فقال الأمير أمين : « ان غريباً لا يقع عن ظهر الجواد ، فقد طالما ركب جياداً أشد جموحاً من هذا الجواد ، في أرض أكثر وعورة » .

فقال فارس آخر هو أكثر الجميع اختباراً : « يا سيدي الأمير ،ورأس أبي سعدى (يريد الأمير بشيراً) ان غريباً لم يسقط عن ظهر الجواد رغم ارادته ، ومما يؤ يد ذلك أن السرج ما يزال كما هو والركاب لم يتزحزح من مكانه ، فلو فرضنا سقوطه رغم ارادته لما أمكنه اخراج رجله من الركاب بل لبقي معلقاً به لان هذا الركاب يمسك الحذاء . فالحقيقة لا يعلمها إلا الله . وأما مسيرنا الى قبيلة بني واصل فلا داعي له بعد أن تحققنا ان الجواد لم يصل الى هناك ، وأرى أن نعود من طريق غير الذي جئنا منه على أن نسير سيراً بطيئاً ونكثر من المشاعل بحيث نجعل بين كل اثنين منا مشعلاً ثم نقص أثر جواد الكاشف » .

فاستحسن الجميع هذا الرأي وساروا على هذا الترتيب ، وكل منهم يحدق فيما حوله على الأرض الرملية لعله يرى شبحاً أو أثراً يستدل منه على شيء ، وهم جميعاً صامتون والطبيعة هادئة .

وبعد مسير ثلاث ساعات أجفلت خيولهم بغتة وأخذت تصهل ، كأنها شاهدت أمراً مخيفاً ، فصاح الأمير أمين قائلاً : « قفوا لنرى ما هناك » .

وبعد هنيهة قال أحدهم : « هذه جثة ملقاة على الأرض » . فلما سمع الأمير والباقون ذلك تقدموا جميعاً الى موضع الجثة ، فاذا بها مضرجة بالدماء وسمعوا منها أنيناً خفيفاً فخفقت قلوبهم واقتربوا منها بالمشاعل ، وما كاد الأمير أمين يتأملها حتى قال : « انها جثة رجل أسمر

متوسط العمر عليه ثياب الأعراب » . ثم فحصوا الجثة وقال : « لا أمل في حياته فهو مضروب بسيف حز عنقه وقد كسرت الضربة العظم » .

فقال الخبير : « هذا رجل من قبيلة بني واصل ، وأنا أذكر أنه من كبار قطاع الطرق فيهم فلنسر في طريقنا » .

فتنهد الأمير أمين وقال : « لا أقدر أن أتركه ملقى على هذه الحال ، فانه يمثل لي منظراً لا أرانيه الله . وها هو ذا قد مات فلنحفر له حفرة نواريه فيها فذلك خير من أن تأكله الوحوش » .

ثم أمر بعض رجاله بانجاز هذه المهمة ، فسارعوا الى تنفيذ أمره . بينما وقف هو يتأمل جثة الاعرابي القتيل ويتوسل الى الله أن يقي غريباً مثل هذا المصير وقد كاد قلبه ينفطر .

وبعد قليل كانت الحفرة قد أعدت، فجاء الفرسان ليحملوا الجثة ، وما كادوا يفعلون حتى شاهدوا في حجر الميت شيئاً غير ثيابه ، فتفرسوا في ذلك الشيء على ضوء المشاعل فاذا هو كوفية من الحرير وعليها العقال ، فصاح الأمير أمين قائلاً : « هذه كوفية غريب ، هيا فتشوا هذا الميت بدقة لعلنا نعثر معه على شيء آخر » .

فجاء أحدهم وفتش الجثة فوجد عقواً من الذهب أعطاه للأمير فقال : « وهذا لغريب أيضاً » . ولما لم يروا شيئاً غير ذلك واروا الجثة ، وأخذوا يفكرون في غريب وقد أوجسوا خيفة من أن يكون قد أصيب بسوء ، وكان الأمير أمين أكثرهم جزعاً اذ اشتم رائحة أخيه من ملابسه وعقده ، فأمر رجاله باعادة البحث عنه في تلك المنطقة على ضوء المشاعل ، وجلس هو على الأرض وعيناه تفيضان بالدمع خوفاً عليه ، اذ خيل اليه أنه سيراه مضرجاً بدمائه مثل ذلك الاعرابي ، وتصور حال والدة غريب حين يبلغها نعيه ، فاشتد جزعه وتلاعبت به هواجسه تلاعب الريح باللهيب ، وشعر كأنما صب عليه ماء حار تارة وماء بارد أخرى ولا سيما أنه كان السبب في مجيء غريب الى تلك الأرض ، فهب من جلسته مرتعداً وقد اتقدت في قلبه الحمية والشهامة ، ثم آنس عن بعد ضوءاً خفيفاً فركب جواده وسار بغير مشعال قاصداً جهة ذلك النور وقد اعتزم أن يتحرى الأمر بنفسه ولم يعد يخشى بأساً ولا يقدر عاقبة .

وبعد قليل ، لاح له عن بعد شبح فارس واقف وسمع صوتاً يناديه : « ارجع من عندك يا كلب العرب وإلا أعدمناك » .

فصاح الأمير أمين قائلاً : « من أنتم يا قوم ، فاننا غرباء وقد جئنا لأن لنا عندكم حاجة » .

فقاطعه صاحب ذلك الصوت قائلاً : « تكلم من موضعك ولا تقترب منا » .

فقال الأمير : « قلت لك اننا لسنا من أهل هذه المنطقة وانما نحن نبحث عن زميل لنا

صل فيها منذ حين » .

وما أتم كلامه حتى كان رجاله قد لحقوا به على خيولهم ، فأوقفهم ليتم حديثه مع ذلك الفارس ، فاذا بهذا يدنو منهم ، فلما اقترب من المشاعل تفرس الأمير فيه على ضوئها فرآه ملثمًا بكوفية بيضاء وقد التف ببرنس أبيض ، وتحته جواد أزرق . وبعد أن تفرس فيهم قليلاً صاح قائلاً : « مرحباً بكم ، لقد ظفرتم بضالتكم » .

فلما سمع الأمير أمين ذلك خفق قلبه وقال : « أين هو ؟ . . أين أخي غريب ؟ » .

فقال الفارس : « هو عندي سليم معافى فكن مطمئناً » .

ثم سار بهم مسافة ميل حتى وصل الى مصدر ذلك الضوء الذي لمحه فاذا هو مضرب منصوب ، ثم قال لهم : « لا تدخلوا جميعكم معاً » .

فقال الأمير : « أنا أدخل وحدي لأرى أخي » .

فأدخله الى خيمة فيها مصباح ، وقد تمدد على وسادة بها رجل لا يبدو من وجهه شيء ، فقال أمين بلهفة أين غريب ؟ » .

فقال له الفارس : « هو هذا النائم هنا » . فتقدم أمين وتأمل وجهه فاذا هو معصوب الرأس مغمض العينين ، فهم بمناداته ولكن الفارس أمسكه وقال : « لا توقظه فانه محتاج للراحة » .

فقال : « ما باله معصوب الرأس ؟ » . قال : « انه مصاب بجرح خفيف ، وقد ضمدناه وهو سليم باذن الله » . فسكن روعه واستفهم من ذلك الفارس عن حقيقة الأمر ، فأخذ الفارس بيده وهو يشير اليه بالصمت ، حتى اذا خرجا من الخيمة ، أشار عليه الفارس بالجلوس بجانبه أمامها وقال له : « اني خرجت في أصيل اليوم للصيد والقنص ، وفيما أنا عائد الى هنا سمعت قعقعة سيوف ، ثم رأيت هذا الفتى بين يدي أربعة من العربان وقد ضربه أحدهم بعصا على رأسه وحاول أن يجهز عليه ، فصحت به صيحة قوية وضربته بالسيف على عنقه فسقط على الأرض وفر رفقاؤه ، وكان بجانب الفتى جوادا ما لبث قليلا حتى انطلق ضاربا في عرض الصحراء . فحملت الفتى الجريح على جوادي وجئت به الى خيمتي فغسلت جراحه باللبن وضمدتها وأعطيته قليلاً من اللبن فشرب وهو بين اليقظة والغيبوبة وفرشت له وسادة لينام . وبعد ان اخذته سنة النوم تركته وكان قد مضى هزيع من الليل ثم تركت الخيمة وأوصيت خادمي ان يعتني به وخرجت اراقب حركات اللصوص حذراً من ان يأتوا الينا بعدتهم ورجالهم ولم يض قليل حتى أتيتم ورأيتمونا على هذه الحال» .

وكان الأمير في أثناء سماعه تلك القصة يتفرس في وجه محدثه ولكنه لم يستطع تبين ملامحه لأنه كان ملثمًا فلم ير إلا عينيه ، على أنه استدل من صوته على أنه ليس بدوياً ، لأن لسانه

قريب من اللسان المصري .

فلما أتم كلامه تقدم اليه الأمير أمين وعانقه وهتف قائلاً : « لقد غمرتنا بلطفك واحسانك ، وأوليتنا جميلاً لا ننساه مدى العمر ، فالله يجزيك عنا خير جزاء ، فهل لي أن أطمع في أن تجيبني عن سؤال بسيط ؟ » .

قال : « سل ما بدا لك » . فقال : « هل لي أن أعلم اسم سيادتكم وسبب مجيئكم الى هذا المكان ، اذ يلوح لي أن السيد ليس من سكان البادية » .

فتنهد الرجل وقال : « ليس هذا وقت الاجابة عن سؤالك ، فدعنا منه الآن وتعال أنت ورجالك للاستراحة هنيهة فانكم أجهدتم أنفسكم في البحث عن ضالتكم » .

قال : « نعم اننا نجول في الصحراء منذ ظهر اليوم » .

فقال : « هلم اذن الى الطعام والاستراحة » .

فنهض الأمير ولكنه لم يستطع المرور أمام خيمة غريب دون أن يدخل اليها ويستطلع حاله ، فرآه ما زال راقداً وقد كلل العرق جبينه وبجانبه خادم يلاحظه . فأراد أن يقبله فمنعه الخادم خوفاً من أن يوقظه . ثم نادى الأمير بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا حالاً ليزفوا الى أبيه بشرى وجود غريب ، وأرسل الفارس معهم بعض الخدم ليدلوهم على الطريق ، فساروا بعد أن أوصاهم الأمير أمين أن يبلغوا أباه أنه سيكون وغريباً عنده غداً ان شاء الله .

ولاحظ الأمير أمين أن الفارس مضيفهم لم يجلس معهم على المائدة ولكنه وقف يخدم ضيوفه ، مع أن الخدم عنده كثيرون ، فأدرك أنه عربي ، لان هذه عادة العرب في ولائمهم .

أما المائدة فكانت طبقاً كبيراً من النحاس عليه ذبيحة من الضأن وصبرة من الأرز فوقها السمن الكثير . وكان الأمير أمين ورجاله يعرفون عوائد البدو فتناول الأمير قطعة من رأس الذبيحة وأعطاها لصاحب الضيافة ، فعرف هذا أن ضيفه ممن خالطوا البدو وعاشروهم . وكان جلوسهم جثواً على ركبة واحدة يتناولون الطعام بأصابعهم من الأرز واللحم ويجعلون اللقمة على هيئة الكرة ثم يدفعونها بالابهام الى أفواههم .

ولما فرغوا من الطعام شرع الخدم في عمل القهوة المشهورة عند البدو ، فعمدوا الى أجران من الخشب وجعلوا يدقون البن بمدقات يسمع لها صوت ألذ الى سمعهم من نغم الموسيقى ، فان لهم دقاً في البن المحمص بالأجران المصنوعة من خشب البطم بأسلوب يطرب الأسماع ويشنف الآذان . وبعد دقها غلاها الخدم في اناء وضعوه على النار ، ثم جاءوا بها الى صاحب البيت فسكب الفنجان الأول لنفسه ، ثم سكب لضيوفه مبتدئاً بالأمير أمين حتى انتهى الى أقل رجاله . وكان الأمير أمين ورجاله قد تعودوا شرب قهوة البدو المتقنة لما يجعلونه فيها من الأفاوية كالبهار وكبش القرنفل وحب الهال وغيرها ، فانشرح كثيراً ولا سيما بعد أن

سكن روعه بلقاء غريب .

وبعد أن تناولوا القهوة طلبوا الرقاد فساروا الى أماكن أعدت لهم ، فلم يرض الأمير أمين أن ينام إلا في غرفة غريب ولكنه تأملها هذه المرة جيداً فاذا هي مصنوعة من الشعر الأسود كسائر خيام البدو ولكنه لم يرها مقسومة قسمين كما جرت عادتهم بأن يجعلوا الخيمة قسمين ، قسمًا للنساء وقسمًا للرجال ، فظن أن تلك الخيمة جعلت كذلك عمداً ، فاضطجع في موضعه .

ولما أفاق غريب في ضحى اليوم التالي رأى أخاه أميناً عند رأسه فكاد يذهل من الدهشة والفرح ، فقبله أمين وابتدره بالكلام مطيباً خاطره ، فقال غريب : « أين اللصوص المجرمون ؟ » . قال : « قد هربوا بعد أن لقي رئيسهم مصرعه ، فكن مطمئن البال ولا تجزع ، فاني أنا أخوك أمين » .

فقال : « أمين ؟ أمين ؟ أين أبي وأين ذلك الجواد ؟ » .

فأخذ أمين يسكن روعه ويخفف عنه حتى صحا من غيبوبته تماماً وأدرك حقيقة ما حدث فحمد الله ، وقص على أمين ما وقع له فقال : « بعد أن ركبت ذلك الجواد ، جمع بي في عرض البيداء ، ولم أقدر على كبح جماحه فظل يعدو بي أكثر من ساعتين . وفيما أنا في ذلك رأيت بعض الناس عن بعد فجعلت أناديهم وأستغيث بهم ، فجاءوا الي وأمسكوا بالجواد وأنزلوني عنه ، ثم طلبوا مني أن أعطيهم كل ما معي ان أردت النجاة لنفسي ، فلما أبيت عليهم ذلك ، غافلني أحدهم وضربني من الخلف على رأسي ، فسقطت مغمى علي ، ولم أشعر بنفسي بعد ذلك إلا وأنا طريح الفراش في هذه الخيمة ، وكأني شربت لبناً ، وها أنذا أراك بجانبي » .

فتقدم اليه أمين وقبله وحدثه بقصته من أولها الى آخرها ، ثم قال : « ان الفضل الأكبر في نجاتك هو لهذا الشهم الغيور (وأشار الى صاحب الخيمة) فنطلب الى الله أن يقدرنا على مكافأته » .

وبعد أن أتما حديثهما تقدم صاحب الخيمة وقال للأمير أمين « هل لسيدي أن يخبرني عن حقيقة أمره وأمر هذا الفتى ؟ » .

فقال : « اننا من أولاد الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان ، وقد جئنا الى مصر منذ وقت قصير ونزلنا بأمر العزيز ببلدة الفشن وراء بني سويف ريثما يأتي من الاسكندرية لمقابلة

أبي . وقد خرجنا أمس لركوب الخيل فجمح جواد أخي هذا وانطلق به في عرض الفلاة وكان من أمره ما علمت ، ولا شك ان أبي يسعده أن يراك ، فهل ترافقنا اليه ؟ » .

فسكت قليلاً ، ثم قال : « لا يمكنني ذلك الآن لأسباب كثيرة لا أستطيع ذكرها ، ولعل الأصوب أن تمكثوا عندنا بضعة أيام ريثما يبرأ جرح الأمير غريب ثم تسيرون في حراسة الله » .

فقال أمين : « ذلك لا يمكننا ، فأبونا في انتظارنا الآن » .

قال : « نرسل اليه من يخبره بذلك ، واذا شاء المجيء فمرحباً به وأهلاً وسهلاً » .

قال : « ما أظنه يجيء ، ولا بد لنا من الذهاب اليه آخر هذا النهار اذ تكون الشمس قد مالت الى الغروب وخفت حرارتها ، فان لم تستطع أن تصحبنا فاخبرنا باسمك لنطلع عليه أبانا » .

قال : « حبذا ذلك ، ولكني أرى تأجيله حتى تسمح لي الأقدار بلقاء الأمير بشير ، ولست بطامع في المكافأة فأنا لم أفعل ما فعلت إلا لأرضي نفسي ، ولم أكن أعلم شيئاً عن الأمير غريب » .

ثم خرج الأميران من الخيمة ، وتأملا فيما يحيط بها ، فاذا هي تتوسط خياماً عدة ، يحدق بها سهل رملي لا يدرك الطرف آخره ، فازدادا تعجباً من أمر ذلك الرجل وما هو فيه من التستر ، وأزمعا أن يخبرا أباهما عنه .

□

بقي الأمير بشير في خيمته يتحدث مع الأمير خليل ابنه في أمر غريب وأمين ، ولم يمكنهما الرقاد طول تلك الليلة لكثرة الهواجس .

وخطر ببال الأمير بشير أن في الأمر مكيدة مدبرة ، فاعتزم بحث هذا الأمر ، وما طلع الفجر حتى أرسل في طلب الكاشف ، فلما جاءه ، ابتدره قائلاً : « هل تلقيت خبراً في شأن الجواد الجامح ؟ » . قال : « لا » .

فقال الأمير : « أريد أن تقبض على الذين باعوك ذلك الجواد » .

قال : «سمعاً وطاعة » . ثم بعث بعض الشرطة فجاءوا بهم ، وكان الأمير بشير جالساً كأنه طود راسخ وقد ظهرت على وجهه ملامح الغضب ، فنظر الى الكاشف وقال له : « اني لا أطلب حقي إلا منك ، وعليك أن تستقصي حقيقة الأمر من هؤلاء الذين باعوك الجواد » .

فوقع الرعب في قلب الكاشف ، وأمر بأن يجلد العربان بالسوط ليعترفوا بالحقيقة ، وسرعان ما نفذ الجنود أمره وظلوا يجلدونهم بالسياط حتى سالت الدماء من أجسامهم ،

ولكنهم لم يلفظوا ببنت شفة ، مما أثار دهشة جميع الحاضرين .

وهنا وقف الأمير بشير ، وأشار الى الكاشف أن يحلهم ففعل ، ثم صاح بهم بصوته الجهوري المرعب قائلاً : « تقدموا الى هنا » . ثم تفرس فيهم وهددهم بالقتل قائلاً : « أنتم المسؤولون عن ولدي ، ولن يفيدكم الانكار لأن أمركم لا يمكن أن يظل خافياً علي ، وقد أخبرني واحد منكم بحقيقة الأمر ، وعلمت أنكم لم تفعلوا ما فعلتموه باختياركم ، لكن اذا أصررتم على الكتمان فلا تلوموا إلا أنفسكم » .

فصرخوا قائلين : « وحياة رأس أفندينا نحن مظلومون » .

فقال الأمير : « أنا أعلم أنكم مظلومون فأخبرونا بحقيقة .الأمر» .

فتقدم واحد منهم وترامى على قدمي الأمير وقبلهما وهو يرتجف خوفاً ورعباً وقال : « وحياة رأس أفندينا نحن عبيد مأمورون لم نفعل شيئاً من تلقاء أنفسنا ، ولكن أمير قبيلة بني واصل ارسلنا لنبيع ذلك الجواد للكاشف بأي ثمن ، ولا نعلم غرضه » .

فقال الأمير : « كفى هذا الاعتراف » . وأمر بحبس العربان حتى يتم التحقيق ثم سأل الكاشف : « هل بينك وبين ذلك الأمير عداوة ؟ » . فقال الكاشف : « ان بعض رجالي قبضوا على لصوص من قبيلته كانوا يقطعون الطريق » .

فتحقق الأمير أن في الأمر مكيدة ، والتفت الى ولده خليل وقال : « ماذا ننتظر بعد ذلك ؟ أنترك أخويك في خطر ونبقى جالسين هنا ؟ » .

ثم هم بجواده فاعتلى متنه ، وكذلك فعل الأمير خليل والكاشف وكل الحاضرين . وقال الكاشف : « ان الحكومة هي المسؤولة عن هذا الأمر ، فليبق الأمير هنا ، وعلي أن أمضي مع رجالي لانجاز هذه المهمة » .

وفيما هم في ذلك أبصروا غباراً ما لبث قليلاً حتى انقشع عن بضعة فرسان عرفوا أنهم من رجال الأمير ، فتوجه الأمير لملاقاتهم واذا هم قادمون من عند أمين وغريب ، وبشروه بما كان فاطمأن قلبه ولكنه لم يزل متشوقاً للوقوف على جلية الأمر .

وفي المساء ، وصل الأميران امين وغريب ومن معهما من الرجال بعد الغروب . بحوالي ساعتين ، فاستقبلهم الأمير بشير وقبل غريباً ، وعاد الجميع الى البر الثاني وهم يحمدون الله . وفي أثناء الطريق حدث الأمير أمين أباه بالخبر من أوله الى آخره ، فلما سمع حديث ذلك الرجل الذي نجى غريباً من الموت قال : « ولماذا لم تأت به معك لكي نكافئه على صنعه ؟ » .

فقال أمين : « ألححت عليه في ذلك كثيراً ، لكنه اعتذر ، وقد ظهر لي من كلامه وحركاته أنه ليس بدوياً ، والأغلب أنه من أعيان هذه البلاد وقد جاء أمراً استوجب غضب عزيز مصر عليه ، ولولا ذلك ما تمنع عن المجيء معي الى هنا . ومما يقوي هذا الظن أنه لم

يرفع اللثام عن وجهه مطلقاً أثناء اجتماعي به أمس حتى ساعة وداعنا له اليوم ، وقد تركته عند العصر وأنا أفكر في أمره ولا أزال أذكر قوله لي ساعة الوداع : بلغ تحياتي الى سيادة والدكم ، وأرجو أن يكون لي شرف مقابلته في ظروف ملائمة . على أن مجيئه الى هنا لا يخلو من المشقة عليه لبعد المسافة ، وكان علي أن أسعى اليه لكن هذا ليس في وسعي الآن والأمر لله من قبل ومن بعد » .

أمين بك

قال الأمير بشير لابنه أمين : « يلوح لي أن الرجل في ضيق وحاجة الى من ينفس عنه كربه ، وما دام لا يستطيع المجيء الى هنا حذر أرصاد الحكومة فيجب علي قياماً بواجب الانسانية والشهامة أن أسير اليه بنفسي مهما يكلفني ذلك من المشقة ، ويكفي أنه نجى غريباً بعد أن أشرف على الموت ، ففي صباح غد ان شاء الله نركب اليه ومعنا بعض الرجال الذين عرفوا الطريق » .

وكان الأمير خليل يكلم غريباً في أثناء ذلك ويلاطفه وهو يستمع لقصته حتى وصل الجميع الى المنزل ، وكان الخدم قد أعدوا الطعام فجلسوا لتناوله . وبعد الاستراحة قليلاً مضى كل منهم الى فراشه طلباً للرقاد لأنهم لم يكونوا ذاقوا النوم في الليلة الغابرة .

وفي الصباح التالي اجتمع الجميع في غرفة غريب وفحصوا جراحه فاذا هي قد قاربت الشفاء ، فأوصوه بألا يخرج من المنزل يومين خوفاً عليه من تأثير الحرارة ، وكان ذلك بمشورة طبيب الأمير بشير الذي كان برفقته .

ثم ركب الأمير بشير ومعه ولده أمين وبعض الرجال وساروا قاصدين الفارس ، بعد أن أوصى الطبيب بأن يلازم غريباً ، وقد آلى على نفسه أن يبذل ما في وسعه لانقاذ ذلك الفارس من الضيق المستحوذ عليه .

وبعد بضع ساعات وصلوا الى الخيام ، وكان صاحبها قد علم بقدومهم من بعض رجاله فخرج لاستقبال أمير لبنان ، وقد راعه ما وجده من عظم هيبته . فترجل الجميع ، ومضوا الى الخيمة الكبرى حيث جلسوا وجيء لهم بالقهوة والتبغ ، وأخذ المضيف يرحب بضيوفه ويوجه أكبر عنايته الى الأمير بشير ، كل ذلك وهو ملثم الوجه .

ثم مد السماط كعادة العرب ، وجلس الضيوف لتناول الطعام فقال صاحب الضيافة : « أخشى أن تكونوا لم تألفوا الطعام على الطريقة البدوية » .

فقال الأمير بشير : « نحن جميعاً قد ألفنا هذه العادة » .

وبعد الطعام أديرت عليهم القهوة ثانية . كل ذلك والأمير بشير يتأمل في حركات ذلك

الرجل ويعجب لأمره ، ولم يكد ينتهي من الطعام حتى طلب أن يخلو اليه ، وقال له : « ألا ترفع هذا اللثام عن وجهك ، اذ لم يبق من داعٍ الى الحجاب بيني وبينك . لأنك أوليتني جميلاً لا أستطيع مكافأتك عليه . واعلم أن الأمير بشيراً سيكون رهين اشارتك في كل ما تحتاج اليه فارفع هذا اللثام عن وجهك وحدثني » .

فوقف الرجل بين يدي الأمير ورفع اللثام عن وجهه ، فبان تحته وجه رجل بين الأربعين والخمسين من العمر ، ذي عينين واسعتين سوداوين ، وجبين عريض مرتفع ، وأنف أقنى ، وشارب ولحية قد وخطهما الشيب في غير أوانه ، فتأمله الأمير بشير فاذا هو ليس من الجنس المصري الأصلي ولا العربي . ثم ابتدره الرجل بالكلام قائلاً : « أنظر يا سيدي الى هذا الشعر الذي شاب قبل أوانه ، وما ذلك إلا من صنع قوم كنا لهم أشد الأنصار وقت العسر واليسر » .

فقاطعه الأمير قائلاً : « اجلس يا أخي واشرح لي قصتك باسهاب » .

فقال الرجل : « أتعدني أنك اذا سمعت في قصتي ما يثبت كوني مذنباً أن تترفق بي ؟ » .

قال : « نعم أعدك بأن أكون عوناً لك ، فقل كل ما عندك » .

فأخذ الرجل يقص حكايته قال : « اني أيها الأمير من الأمراء المماليك الذين سمعتم بمذبحتهم في قلعة القاهرة منذ إحدى عشرة سنة ، وقد كنت ممن دعوا الى القلعة في ذلك اليوم المشؤوم وقدر الله لي أن نجوت بنفسي لتأخري عن وقت الدعوة » .

فقاطعه الأمير بشير قائلاً : « لعلك أمين بك ؟ » .

قال : « نعم إني أنا هو يا سيدي ، وقد مضى كل ذلك الوقت بعد فراري من مخالب الموت وأنا أنتظر عبثاً أن تحين لي فرصة لرجوعي الى القاهرة لمشاهدة أهلي ، فقد تركت هناك امرأتي وولدي ، وعلمت أن عزيز مصر أباح لجنده التزوج بنساء المماليك فلا أعلم ما كان من أمر أسرتي ، فقد أنفذت الى هناك من سألوا عنها لكنهم لم يأتوا بفائدة ، فمن قائل أنها في مصر ، وقائل انها هاجرت الى غيرها من البلاد . وقد أصبحت في قلق من جراء ذلك ، لأني لا أعلم هل زوجتي على قيد الحياة ، أو هلكت على أثر ولادتها لأنها كانت حاملاً ، ولا أعلم ما جرى لولدي ، ثم اني منقطع في هذا البر لا أستطيع السكنى في المدن خوفاً من عيون الحكومة لأنها جعلت دماءنا هدراً فلكل من لقينا أن يقتلنا ولا أثم عليه ولا حرج » .

فقال له الأمير : « طب نفساً فاني سأقابل العزيز عما قريب ، ولا بد من أن أذكرك أمامه وأطلب لك العفو منه ، وهذا أقل ما يجب لك علينا ، ولا بد من أن تنال مرامك باذن الله » .

فقال أمين بك : « ليس هذا كل حديثي أيها الأمير فان عندي قصة أشد تأثيراً في نفسي وهي سبب قلقي واضطرابي فأسألك الاصغاء اليها وألا تؤاخذني بما كان مني » .

قال : « قل ولا تخف شيئاً » .

□

تنهد أمين بك وقال : « أعترف لك أيها الأمير بأني جلبت الشقاء لزوجتي المسكينة هذه ، فانها ليست من المماليك مثلي ، وليست من بلادي وانما ساقتها الأقدار الي اتفاقاً » .

فقال الأمير : « ومن أي بلد هي ؟ » .

فخنقته العبرات وسكت . فابتدره الأمير وقال له : « قلت لك : لا تخف شيئاً فصرح بكل شيء » . فوقف البيك ثم جثا بين قدمي الأمير وقبل ركبته قائلاً : « انها من لبنان أيها الأمير الجليل » .

فاضطرب الأمير بشير ، وقاطعه قائلاً : « وكيف يمكن أن يكون ذلك ؟ » .

قال : « انني لما كنت شاباً توجهت مرة مع عمي أحد أمراء الألفية الذين تولوا مشيخة البلد زمناً طويلاً الى بلاد الشام ، وكان ذلك على أثر قدوم الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) . فساقتنا المقادير الى جبل لبنان ولم يعلم بنا أحد ، وكنت سعادتك أميراً على الجبل اذ ذاك ، ولكن الجزار والي عكا كان قد غضب عليك واتهمك بالاشتراك مع الفرنسيين لكي يولي أولاد الأمير يوسف مكانك . وبلغني أنه ولاهم ولكنه لم يرسلهم لتسلم الامارة لاشتغاله بالاستعداد لصد الحملة الفرنسية عن سوريا . وكنا نعتقد اذ ذاك أنكم من حزب الفرنسيين ، ولهذا رسخ في نفوسنا حب الانتقام منكم ، غير أننا لم نر لذلك سبيلاً فلبثنا ننتظر ما يكون . واتفق أن كنا ذات يوم في احدى قرى لبنان المجاورة لدير القمر ، وكان أهل البلاد في شغل شاغل بالخلاف بين أحزابهم ، فعزمنا على العودة الى مصر ، اذ علمنا بأن الفرنسيين كاد أمرهم يفشل بسبب المنشورات التي أرسلها الباب العالي ضدهم ، وجاءت الرسائل الى عمي لكي يرجع الى مصر وينضم الى رفقائه المماليك . ففي ليلة تأهبنا للرحيل هيأنا الخيول وركبنا ، وفيما نحن خارج تلك القرية شاهدنا عن بعد شبحاً بين الكروم ، وكنا قد ارسلنا أحد رجالنا ليأتي لنا بشيء من العنب ويلحق بنا في الطريق ، فاذا به عاد الينا ومعه فتاة في الرابعة عشرة من عمرها كأنها من حور الجنان ، فتأملتها وذكرت أنني شاهدتها قبلاً ، ومالت عواطفي اليها ، لكني لم أكن أجرؤ على مخاطبتها لعلمي أنها من بنات الأمراء . فلما سألت الرجل عنها ذكر أنه وجدها بين الكروم وقد أمسى عليها المساء ، وطلبت منه أن يوصلها الى بيتها القريب من ذلك الكرم ، لكنه جاء بها الينا . ثم همس في أذني قائلاً : (انها تصلح أن تكون زوجة لك) . فحدثتني نفسي أن آخذها معي الى مصر وأتزوج بها ، ولما كلمتها في هذا الشأن لم تظهر معارضة ، ولعلها خافت منا ، غير أنها كانت تبكي . فقلت

لها : (لا بأس عليك) . وصرت أطيب خاطرها وأنظر الى عمي لأرى رأيه في ذلك الأمر ، فوجدته قد استحسن أخذ الفتاة معنا . فأغواني الشيطان وأغويت الفتاة وسرنا بها في ظلام ذلك الليل ونحن نجد المسير حتى خرجنا من حدود لبنان ووصلنا الى مدينة صيدا ، وهناك عقدت قراني بها . وبعد بضعة أيام واصلنا رحلتنا » .

فقاطعه الأمير قائلاً : « هل هي الأميرة سلمى ؟ » .

قال : « نعم أيها الأمير » .

□

اصفر وجه الأمير رغم ارادته وقال : « اني أذكر أمر فقد هذه الفتاة ، وكنت قد أبحت دم الجاني عليها ، ولكن مضى ما مضى وأنت الآن من أصهارنا ، وعسى أن تكون تلك الأميرة على قيد الحياة » .

فبكى أمين بك وقال : « لا يعلم ذلك إلا الله ، واني أيها الأمير ما زلت أعض بنان الندم ويؤنبني ضميري لما أصاب تلك المسكينة بسببي ، وذلك اننا بعد أن مكثنا في صيدا عدة أيام ، قيل لنا ان الفرنسيين جاءوا بجيوشهم لفتح سوريا ولكنهم لم يتجاوزوا عكا بل رجعوا عنها بعد أن حاصروها خمسين يوماً فامتنعت عليهم بمساعدة الاسطول الانجليزي » .

« وقال لي عمي : (ما دام الفرنسيين قد عادوا الى مصر فلا فائدة لنا من العودة اليها ، وخير لنا أن نعود الى حيث كنا) . ولكني رأيت أن رجوعنا الى لبنان فيه خطر علينا بسبب أخذنا سلمى . ثم أخذت وبعض رجال عمي نحرضه على مواصلة السير الى مصر لأن أهلها لن يقابلوا الفرنسيين بمثل ما قابلهم به أهل سوريا بعد ان ذبح الفرنسيون في يافا أربعة آلاف رجل من الأرناءوط والمغاربة كانوا قد سلموا سلاحهم . فأهل مصر لا ينخدعون بزعم الفرنسيين أنهم مسلمون مثلهم ، ولا سيما أنهم يرونهم يشربون الخمر ولا يسترون نساءهم ، وقد أرسل جلالة السلطان الى المصريين محرضاً إياهم على إخراج الفرنسيين من بلادهم . وبقيت ألح على عمي بمثل هذه الأقوال ، قاصداً البعد من لبنان خوفاً من الوقوع في شر أعمالي ، الى أن أقنعته بالعودة الى مصر ، على أن نستقر قرب حدودها ونترقب ما يجري فيها . وبعد مفاوضة طويلة قر القرار على التوجه الى حدود مصر ، ففرحت بذلك كما فرحت به الأميرة سلمى ، ولم يكن لي بعد ذلك من هم إلا العمل على راحتها واسعادها . ولهذا كنت أخشى أن تتوطد أقدام الفرنسيين في مصر ولا نعود اليها فأكون قد جلبت الشقاء لنفسي ولها ، وما زلنا سائرين حتى نزلنا في موضع بالقرب من العريش ، وبعثنا جواسيسنا لاستطلاع أخبار الفرنسيين فعلمنا منهم أن بونابرت غادرها سراً الى بلاده في أواخر سنة ١٧٩٩ م .

فاستبشرنا بذلك جميعاً . ثم أخبرني عمي أن المماليك وأهل مصر يعملون لاخراج الفرنسيين ، لكنهم لم يقدروا على ذلك ، فبقي هؤلاء أيها الأمير في مصر الى أن جاءت الحملة العثمانية وأخرجتهم سنة ١٨٠١ من مصر بمساعدة حملة انجليزية ، فابتهجنا وهممنا بالتوجه الى القاهرة».

« ثم علمنا ان التربص في مكاننا خير لنا ، لأن الانجليز تعهدوا بأن يعيدوا مصر الى الباب العالي ، وقد سلموا ولايتها الى والٍ عثماني معه أوامر سرية بقتل جميع المماليك وإبادتهم . ولم أذكر لسلمى شيئاً من ذلك منعاً لاضطرابها».

« وليس من غرضي الآن أن أشرح لسعادتكم تاريخ الحوادث المصرية اذ ذاك . وانما المقصود اظهار ما يلحقني من التبعة اذا أغفلت أمر تلك الأميرة فأقول بالاختصار : انه لما جاء محمد علي باشا الوالي الحالي مع الجنود العثمانيين الذين جاءوا لاخراج الفرنسيين ، وقع بينه نفور وبين الوالي العثماني ، فطلب الى أمرائنا أن يساعدوه في مقاومة ذلك الوالي وأن يكونوا معه يداً واحدة ، فساعدناه جهدنا ، حتى اذا صارت الولاية اليه تنحى عنا ولم يسمح لنا بالاستيلاء على حقوقنا فاضطررنا الى مقاومته ، وكان عمي اذ ذاك في جهات الصعيد وكنت وسلمى معه . فاتصل من هناك بخورشيد باشا الوالي الذي كان قبل محمد علي واتفق معه على مساعدته في خلع محمد علي باشا على أن يعيد الأحكام اليه ، ثم فاوض في ذلك أيضاً قنصل انجلترا وتعهد له بأن يسلم البلاد لها إن هي ساعدته . ولكننا بعد أن كدنا ندرك الوطر ذهبت مساعينا عبثاً ، اذ جاءت الأوامر بتثبيت محمد علي والعفو عن المماليك ، فقلنا : (ما لا يدرك كله لا يترك جله) . ورحلنا من الصعيد الى جهات مختلفة ، فكانت إقامتي بالقاهرة حيث حسبت نفسي سعيداً لأني صرت قادراً على ارضاء سلمى ، فأسكنتها قصراً كبيراً وأتيت لها بالخدم والجواري ، وظننت الدهر قد صفا لنا بعد أن تنازلنا عن كل حقوقنا في الحكم ، وما لبثنا قليلاً حتى دعانا محمد علي باشا الى قصره في القلعة لشهود الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمحاربة الوهابيين . وقد لبى هذه الدعوة الرسمية جميع المماليك . ولما أردت الخروج من البيت قاصداً الى القلعة ، بعد أن أمرت الخادم بأن يهيء لي الجواد ، نادتني سلمى وقالت لي: (لا تستعجل فإني اشعر باضطراب في جسمي هذا النهار وربما اضع حملي اليوم، ثم اني خائفة لاني رأيت حلمًا مزعجاً) . فقلت لها : (ان الأحلام أوهام لا يعبأ بها) . ثم جلست بجانبها وتجاذبنا أطراف الحديث قليلاً وأنا أتأمل جمال وجهها ولطفها ، ثم انتبهت وقد كاد يفوتني الوقت فركبت جوادي وقصدت القلعة ، فلما وصلت الى باب العزب رأيت الموكب قادماً نحوه يريد الخروج

منه ، وآثرت الانتظار هناك ، ريثما يخرج فأرافقه ، فوقفت بجوادي على تل أمام الباب ، لكنهم سرعان ما أغلقوه بغتة ، وأعقب هذا اطلاق الرصاص داخل القلعة ، فعلمت أنها مكيدة لقتلنا ، وحملني حب النجاة على الفرار في الصحراء بدلاً من العودة الى سلمى في البيت ، فوثبت بجوادي من فوق ذلك التل فسقط على الأرض جثة هامدة ، وانطلقت ماشياً حتى خرجت من ضواحي القاهرة فتربصت لأعلم النتيجة ، ثم علمت أن دم المماليك أصبح هدراً حيثما كانوا ، فأوغلت في هذه البرية حتى وصلت الى هنا فالتجأت الى أمير احدى القبائل ، فهو يرسل لي كل ما أحتاج اليه من الطعام واللباس والخدم . وقد دهمني الشيب في مقتبل العمر كما يرى سيدي الأمير» .

□

فبهت الأمير لهذه القصة الغريبة ومن الغريب أنه مع فراسته المشهورة لم ينتبه لعلاقة أمين بك بغريب ، أو لعله انتبه وتجاهل لغرض في نفسه ، على أنه قال لأمين بك : « طب نفساً وقر عيناً فلا بد لي من أن أفاوض العزيز في ذلك حينما أعود الى القاهرة ، وأرجو أن أستطيع مكافأتك على حسن صنيعك » .

وطلب اليه أمين بك أن يحفظ ذلك سراً ، فوعده بذلك .

ابراهيم باشا

ما كاد الأمير بشير يعود الى رجاله في الخيمة بعد أن استمع لقصة أمين بك حتى جاءه رسول قادم من بني سويف وبيده كتاب ينبىء بقرب مرور ابراهيم باشا بالفشن . في طريقه الى الفرطوس في جهات الصعيد ، فالتفت الأمير الى أمين بك قائلاً : « هذه فرصة يجب ألا نضيعها ، فان ابراهيم باشا ابن عزيز مصر سيمر بنا قريباً ، ولا ريب أنه ينزل ليبيت عندنا ليلة أو يقضي بيننا نهاراً . وأنت تعلم أنه صاحب منزلة كبيرة عند أبيه ، وقد سبق لي أن حادثته فوجدته حسن الطوية محباً للعدل ، فاذا اغتنمنا هذه الفرصة وقصصنا عليه القصة ساعدنا ولا ريب ، فالأصوب على ما أظن أن تركب معي الى الفشن متنكراً في زي واحد من رجالي فلا يعرفك أحد . واذا لم يعف العزيز عنك ، او لم تجد امرأتك وأولادك وكرهت الإقامة بهذه البلاد فانك تسير معي الى لبنان وتكون من أخصائي ، لأنك أوليتني جميلاً لا أنساه مدى الدهر » .

فانشرح صدر أمين بك لهذه العبارة اللطيفة وقال : « سمعاً وطاعة » . ثم أمر من في الخيام أن يقتلعوها وكتب كتاباً دفعه الى واحد منهم وأمره أن يوصله الى أمير القبيلة التي عضدته مثنياً عليه . وأسر الى ذلك الرسول بما جرى وطلب اليه أن يبلغ ذلك الى أميره سراً .

وفي عصر ذلك اليوم ركب القوم وسار الأمير بشير في طليعتهم والى جانبيه الأمير أمين وأمين بك . وكان هذا قد طلب الى الأمير بشير ان يناديه بأسم سليمان . فصار كل من معه يعرفونه بهذا الاسم . فلما وصل الجميع الى الفشن سأل سليمان عن غريب فقيل له : انه في خير وسلامة . فذهب اليه وقبله . فقبل غريب يده ، ولم يكن غريب ولا أحد من أولاد الأمير يعلم شيئاً عن أمين بك سوى أنه رجل له فضل عليهم ، وقد جاء به أبوهم ليكافئه بالتوسط عند عزيز مصر ليعفو عن ذنب كان قد اقترفه ، كما علموا ان اسمه سليمان .

ثم بعث الكاشف الى الأمير يطلب اليه التوجه بمن معه الى بني سويف بأمر العزيز ، فرحلوا الى هناك ، وبعد قليل وردت الأخبار بقرب وصول ابراهيم باشا فأخذ الكاشف يهيء معدات الاستقبال والترحيب ، فجاء بمن عنده من الجند ورتبهم صفوفاً عند ضفة النيل وهم

في أحسن ما لديهم من الملابس ، ونزل الأمير بشير ومن معه لاستقباله . أما أمين بك فبقي في البيت متنكراً بثياب أحد رجال الأمير .

وفي ذات صباح وصل ابراهيم باشا في ذهبية رست به على شاطىء النيل . ولما طلع الى البر تلقاه الكاشف وقبل يده ثم قدم له الأمير بشير فتصافحا وسارا معاً الى المنزل .

وكان ابراهيم باشا ربعة في الرجال ، مستوي القامة منتصباً ، وكان اذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمره ، دقيق الأنف أشهل العينين حادهما مع ارتفاع مقلتيهما ، ووجهه مستطيل فيه أثر الجدري ، أشقر الشعر وعلى رأسه الطربوش العسكري الطويل ، وقد لبس الحلة الرسمية وعلى صدرها وكميها جدائل القصب .

وكان وجهه أقرب الى العبوسة منه الى الطلاقة والدعة ، ولذلك لم تكن الرعية تحبه كأبيه ، وكان سريع الغضب حاد الطبع لكنه سليم النية ليس في قلبه مكر ولا خداع البتة .

فلما وصلوا الى المنزل دخل ابراهيم باشا والأمير بشير ومن معهم الى غرفة الاستقبال المفرَوشة بالسجاد والوسائد والمقاعد فجلسوا فيها ، وكان غريب في غرفته وبجانبه سليمان يلاطفه ويعتني به . وقد فعل ذلك حتى لا يراه ابراهيم باشا .

وقال ابراهيم باشا للأمير بشير : «كيف وجدت مصر أيها الأمير ؟ » .

فقال : « وجدتها على غاية ما يكون من الخصب ، وتربتها تختلف عن تربة بلادنا كثيراً ، وقد سبق أنْ جئت اليها مرة قبل هذه غير أني لم أتجاوز الاسكندرية حينئذٍ ولم أر شيئاً من خصب هذا البر السعيد ، وقد علمت أيضاً أن الفضل لوالدكم في حفظ الأمن وسعادة الأمة » .

فقال ابراهيم باشا : « لو أنك علمت الحالة التي كانت عليها مصر قبل أوائل هذا القرن ، أي في أيام الأمراء المماليك ، لعجبت من التغير الذي طرأ عليها ، فقد كانت الأرواح والأموال اذ ذاك لمن هو أقوى بطشاً ، ولا بد أنك كنت تطلع على أخبارهم ، فأين الحالة من حالة البلاد الآن ؟ » .

فقال الأمير بشير : « هذا أمر لا يختلف فيه اثنان ، فوالدكم هو الذي أحيى هذه البلاد من العدم ، غير أن الشعب المصري والحق يقال شعب عامل مطيع » .

قال : « ان المماليك وأحزابهم كانوا مصدر الفساد ، ولذلك هدأت البلاد وساد الأمن والرخاء بعد أن أهلكناهم » .

قال : « أيأذن لي جناب الباشا في أن أذكر له بعض الملاحظات في شأن هؤلاء المماليك ؟ » . قال : « قل ما تشاء » .

قال : « ان هؤلاء المماليك كانوا في أيام تسلطهم يعيثون فساداً في البلاد ، غير أن ذلك

لا ينطبق عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا في القرن السابع والثامن والتاسع وأوائل العاشر سلاطين هذا القطر، وقد تركوا من الآثار ما لا تنكر عظمته ، لكنهم بعد تغلب السلطان سليم العثماني ودخوله مصر انحلت عزائمهم ، وبعد أن كانت السلطة في قبضتهم أصبحوا ثانويين في الحكم كما تعلم ، ولا أظنك تخالفني في أن الباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العلية ولاة على مصر منذ دخول هذه البلاد في حوزتها كانوا سبباً لتمرد المماليك ، واستبدادهم ، لأن هؤلاء كانوا يرون الباشوات أشباحاً بلا أرواح ، حتى آل الأمر الى أن استقل علي بك الكبير بحكم مصر عن الباب العالي وفتح سوريا في أواسط القرن الماضي ، ولو لم يخنه صهره محمد بك أبو الذهب لبقيت مصر وسوريا مستقلتين . ولا أعلم أن هذا الرجل استعمل في كل أعماله ما يقال انه خيانة .

« ثم لما جاء الفرنسيون الى مصر ، نقموا على المماليك وبالغوا في التشهير بهم ، ولم يكن ذلك إلا إثارة لعواطف المصريين ليساعدوهم عليهم رغبة في الاستيلاء على البلاد ، وزد على ذلك أنهم بعد تولي جناب والدكم أذعنوا له وخضعوا لأوامره بعد أن ساعدوه في نيل أمنيته ، وقد ورد العفو عنهم من جلالة السلطان محمود ، وبلغ من تمكن عرى الألفة والولاء بين جناب والدكم وبينهم أن تبودلت الزيارات العائلية بينه وبين زعيمهم شاهين بك ، ومن هنا كان قتلهم بالطريقة التي علمناها من الأمور التي تدعو الى الملاحظة » .

فقال ابراهيم باشا : « ان هذه الملاحظة ذكرها لوالدي كثيرون من كبار القوم الذين ذاكروه في هذا الشأن ، وقد يتبادر الى الذهن أنهم على حق فيها ، غير أن للمسألة وجهاً آخر وهو أن أولئك المماليك عرفوا مذ كانوا في منصب السلطنة في مصر بأنهم ليسوا من أصحاب العصبية ، بمعنى أنهم قلما كانوا يتوارثون الملك ، بل كانت الحكومة عندهم لأشدهم بأساً وأكثرهم أحزاباً ، فلم يكن الملك يصل اليهم إلا خلسة واغتصاباً . ثم لما صارت البلاد في حوزة بني عثمان لم يبقهم السلطان سليم في منصب الأمراء إلا رغبةً منه في التخلص من شرهم ولكي يكونوا عيوناً على غيرهم من أعضاء الحكومة .

« وقد علمت ما كان من تطاولهم على الباشوات العثمانيين الذين كانوا يتولون حكم مصر ، حتى ان الحكومة العثمانية عهدت الى ولاتها هنا بعد الحملة الفرنسية في أن يقتلوهم ، وكانت تلك الأوامر سرية ، غير أن الباشوات لم يتمكنوا من ذلك . فلما اعتلى والدي منصب الولاية كانوا بحسب الظاهر قد أذعنوا ، ولكنهم ما برحوا سبباً لقلقه ، فلما عهد الي والدي سنة ١٨١١ م في اخضاع الوهابيين الذين ثاروا في شبه جزيرة العرب ، نمى اليه انهم سيغتنمون فرصة غياب الجند هناك لنيل مآربهم فسبقهم هو وأهلكهم . ولا بد أنه فعل ذلك

بايعاز من الباب العالي ، واني أؤكد لك أيها الأمير أنه لو لم ينلهم ما نالهم لكانوا شر عقبة في سبيل نجاح البلاد وسعادتها » .

فقال الأمير بشير : « اذا كان اهلاكهم قد جرى عملاً بأوامر سلطانية فجناب والدكم براء من تبعته ، على أني أذكر رواية سمعتها عن والدكم حدثت يوم مقتل هؤلاء المماليك ، وذلك أنه لما خرج موكبهم من قصره بالقلعة كان جالساً على ممشى يشرف على مكان المذبحة وهو يدخن بالنارجيلة ، ولم يكن عنده إلا صديقه محمد بك لاظ أوغلي وصالح قوش زعيم الانكشارية . فلما بدأت المذبحة لم يعد يستطيع البقاء لمشاهدتها فدخل ديوانه بعد أن أخرج من كانوا فيه وبقي منفرداً وقد استولى عليه السكوت والرهبة وتغيرت هيئته لشدة تأثره واضطراب فؤاده وعزوفه عن مشاهدة ذلك المنظر الهائل ، ولعل هذا من الأدلة على أنه لم يقتلهم اختياراً . وعلى أية حال لدي أمر سأعرضه على جنابكم وله علاقة ببحثنا ، وهو أن أحد هؤلاء المماليك نجا من تلك المذبحة اتفاقاً ، وهذا الرجل قد أولاني جميلاً بانقاذ أحد أولادي من مخالب الموت ، ولم أر وسيلة أكافئه بها خيراً من التماس العفو عنه من جناب والدكم ، فهل تظن ذلك ممكناً ؟ » .

فقال ابراهيم باشا : « ان هذا البيك الذي نجا ، التجأ الى بعض القبائل البدوية في هذه الجهات ، وقد كان في عزم والدي أن يهلكه حالما يعلم بمكانه ، ولكنني أعلم أنكم مكرمون لديه فلا أشك في أنه يجيب طلبكم ، وسأعرض عليه هذا الأمر عقب عودتي من هذا السفر » .

فشكره الأمير بشير شكراً جزيلاً وقال : « اني اذا لم أستطع خدمة هذا الرجل لا يستريح ضميري » .

فقال له ابراهيم باشا : « طب نفساً فسيكون ما تريد ان شاء الله » .

وبعد انتهاء الحديث في هذا الموضوع ، انتقلا الى الحديث في موضوعات أخرى فسأله الأمير عن حرب الوهابيين وما كان من أمرها ، فأفاض الباشا في شرح ذلك ، ثم حضر الطعام فتناولوه .

وفي اليوم التالي سافر ابراهيم باشا الى الجهة التي كان يقصدها ثم عاد بعد قليل الى القاهرة .

محمد علي باشا

أقام الأمير بشير في جهات بني سويف بضعة أشهر حتى ورد عليه كتاب من محمد علي باشا بالقدوم الى القاهرة لأنه جاء من الاسكندرية . وكان غريب قد تم شفاؤه ، كما كان أمين بك قد علم بما دار بين الأمير بشير وابراهيم باشا في شأنه واطمأن خاطره ، فلما بلغوا القاهرة نزلوا في قصر بضواحيها أعده محمد علي باشا لسكنى الأمير ومن معه ، ثم أرسل اليه خمسة من جياد الخيل وطلب اليه أن يأتي الى قصره في القلعة .

فنهض الأمير وسار معه ولداه وغريب للسلام على عزيز مصر ، فدخلوا القلعة حتى جاءوا القصر فوقف لهم الحراس اجلالاً ، ودخلوا غرفة الاستقبال المفروشة أرضها بالسجاد والبسط ، فاذا بمحمد علي باشا جالساً على وسادة ، وفي احدى يديه مسبحة ، وفي الأخرى مذبة ، فوقف لاستقبال الأمير بشير ورحب به كثيراً وأجلسه بجانبه ، كما رحب بأولاده بعد أن عرفه الأمير بهم . وكان غريب أكثر اعجاباً بتلك المقابلة الرسمية لأنه لم يشهد مثلها من قبل .

وأخذ يختلس النظر الى محمد علي باشا ، فاذا هو ربعة في الرجال ، عالي الجبهة واسعها ، بارز الحاجبين أسود العينين ، صغير الفم باسمه ، كبير الأنف متناسب الملامح ، مع هيبة ووداعة ، ولباسه غاية في البساطة ، وعلى رأسه الطربوش الجهادي .

وبعد تبادل التحية سأل محمد علي باشا الأمير بشيراً عن أولاده والتفت الى غريب ودعاه اليه وأجلسه بجانبه ورأى أثر الجرح في رأسه فقال للأمير بشير : « ما هذا الأثر أيها الأمير ؟ » . فقال : « هذا أثر ضربة كادت تقضي عليه في صحراء مصر » .

فعجب محمد علي باشا وقال : « وكيف ذلك ؟ » . فقص عليه حكايته الى أن قال : « ولولا أن أحد الرجال الفضلاء أنقذه من مخالب الموت لما كنت رأيته ، فكم أنا مدين لهذا الرجل ؟ » .

فقال : « حقاً انه لأهل لأحسن مكافأة » .

فقال الأمير : « انني أرجو أن تكون مكافأته على يديكم » . ثم أشار الى أنه يريد أن

يخاطبه في هذا الأمر على حدة ، فنهض وانتحى به ناحية من الغرفة ففهم الحاضرون أنهما يريدان الخلوة واستأذنوا في الخروج الى غرفة أخرى . وعلى أثر ذلك قص الأمير بشير القصة حتى أتى على آخرها الى أن قال : « وأفضل ما أستطيع أن أكافىء به الرجل أن أحصل له على العفو من جنابكم ، فما قولكم ؟ » .

فالتفت العزيز الى الأمير قائلاً : « قد ذكره لي ابني ابراهيم ، واكراماً لخاطرك قد عفوت عنه ، وانما أرجو ألا يقيم بهذه البلاد ، اذ أن ظهوره فيها آمناً بعد اهداري دمه ونقمتي عليه لقرابته من الأمير الألفي الذي كان ساعياً في اخراج مصر من يدي وتسليمها للانجليز ، مما لا يتفق وسياستي ، على أن مدحك أخلاقه واقرارك بمعروفه قد حملاني على العفو عنه » .

فقال الأمير : « سيكون بمعيتي الى أن أبرح مصر فآخذه معي ، ولكن لا بد له من البحث عن أسرته فأرجو السماح له بذلك » .

فقال : « قد أجزنا له ذلك على أني أود أن أتحدث معك في شؤون أخرى ، وحبذا لو جئت الى قصر شبرا ومعك أنجالك الأعزاء ، فهناك نستطيع التحدث كما نشاء » .

فشكره الأمير بشير وودعه مسروراً بالعفو عن أمين بك . ثم عاد وأولاده الى المنزل ، حيث خلا الى أمين بك وأخبره بما كان ، وأرسل معه بعض رجاله ومعهم كوكبة من الجنود للبحث عن زوجته وأسرته ، فكاد يطير من الفرح وذهب معهم لانجاز هذه المهمة .

ثم جاء حنا البحري يطلب الأمير وأولاده للتوجه الى قصر شبرا حسب أمر العزيز ، فمضى اليه ومعه أولاده . وفيما هم في الطريق على خيولهم تذكر غريب أمر تلك المرأة التي وعدوها بانقاذها من زوجها ، فسأل أباه عما تم في أمرها ، فقال الأمير : « قد طلقت من ذلك الرجل ، ورتب لها العزيز راتباً شهرياً مرضاة لك » . فسر غريب بذلك سروراً عظيمًا .

ولما بلغوا قصر شبرا وجدوه قصراً بديعاً تحدق به حديقة فيها أطيب الثمار والأزهار والرياحين ، واستقبلهم محمد علي باشا ورحب بهم ، وأدخلهم غرفة الاستقبال وهي مشرفة على النيل وأجلسهم بجانبه ، وأخذ يسأل الأمير بشيراً عن كل ما يتعلق بولايته في لبنان ، فأدرك أولاد الأمير أن وجودهم في تلك القاعة لا داعي له ، فخرجوا الى الحديقة وجعلوا يطوفون فيها ويتمتعون بمشاهدة ازهارها وثمارها ويتحادثون في الفرق بين يوم ضياع غريب وهذا اليوم وما يمكن أن يكون من أمر سليمان والعفو عنه .

وفي تلك الليلة تناولوا الطعام في بيت العزيز وقد أحسن ضيافتهم ، ولما خرجوا من عنده ودعهم والتفت الى الأمير قائلاً : « لا بد من مقابلة أخرى سرية بيني وبينك لا يحضرها أحد » . فقال : « سمعاً وطاعة » .

وبعد أيام دعي الأمير بشير وحده الى القلعة لمقابلة محمد علي باشا ، فمضى تاركاً أولاده

في المنزل الذي أنزلوا فيه في جزيرة الروضة . فخلا اليه محمد علي باشا وكلمه ملياً عن مقاصده في بلاد الشام ، فوعده الأمير بالمساعدة . ثم أخبره انه عما قليل تصدر الأوامر الشاهانية بالعفو عن عبد الله باشا حاكم عكا ورجوع الولاية اليه .

فقال الأمير : « انه مما يزيد ثقتي في نجاح مساعيكم لتوسيع دائرة بلادكم ، اعتناؤكم بتدريب الجند على النظام الجديد المأخوذ عن نظام الجيش الفرنسي ، فان ذلك من أول دواعي فوزكم ، اذ أن أهل الشام وغيرهم من أهل الشرق لا يعرفون هذا النظام ، ولذلك لا يتأتى لهم الوقوف أمام جنودكم » .

فتبسم محمد علي ثم قال : « هذا صحيح ، ولكن لا يخفى عليك اني قاسيت في سبيل ذلك مشقات عظيمة ، ولا أزال أقاسي أعظم منها ، لأن عساكر الارناءوط والأتراك قد عظم عليهم هذا التغيير واعتبروه بدعة مخالفة للشرع الشريف فنقموا علي حتى كادوا يشقون عصا الطاعة ، فجئتهم من حيث أرادوا ودبرت لهم وسيلة تريحني منهم ولا تخلو من الفائدة لي . وذلك أني أرسلتهم بقيادة ولدي اسماعيل الى الأصقاع السودانية ليفتتحوها فان استطاعوا ذلك فبها ونعمت ، وان هلكوا كنت قد نجوت من مقاومتهم ، وقد عدت بعد ذهابهم الى إتمام مقاصدي في تدريب الجند فأخذت من أهل البلاد من يصلح للجندية وجعلت لهم قواداً من الافرنج يدربونهم على الأعمال الحربية ، فان هذا الشعب قريب الطاعة يتقن التدرب » .

فأعجب الأمير بشير بحكمة محمد علي باشا وقال في نفسه : « مثل هذا الرجل خليق بأن تدين لحكمه الأقطار المصرية وغيرها » .

وعاد الأمير من عنده مسروراً . وفيما هو في الطريق تذكر سليمان وأنه قد مضى عليه ثلاثة أيام ولم يرجع من مهمة بحثه عن امرأته ، وكان قد ألح عليه أن يأتي بها اليه ليراها ، فلما وصل الى المنيل وجده قد عاد ولكنه كئيب مضطرب البال ، فسأله عما فعل فقال : « قد بحثت عنها في المدينة فلم أقف لها على أثر ، ولذلك تراني قلقاً لا أدري ماذا أفعل وقد أظلمت الدنيا في عيني » .

فأخذ الأمير يخفف عنه ويعزيه ، فقال أمين بك : « ليس لي تعزية إلا بمعرفة مكان تلك المسكينة التي كنت سبباً لشقائها ، فقد قيل لي أنها لم تظهر منذ يوم المذبحة ، فلم أعد استطيع الإقامة بهذه الديار ، بل صرت أفضل الموت على الحياة فاني لم أكن طامعاً في العفو إلا أملاً في لقائي بها ، والآن لا رغبة لي في الحياة » .

فقال له الأمير : « لا تستعظم الأمر الى هذا الحد وان كنت لا تستحسن البقاء هنا فمرحباً بك لأننا نأخذك معنا الى بلادنا ونحلك على الرحب والسعة » .

فتنهد ثم قال : « لا يا سيدي فاني لا أستطيع المسير الى تلك الأنحاء وحدي وقد خرجت منها بملك كريم قد سلبتنيه الأقدار » .

ثم تقدم الى الأمير وهم بتقبيل يديه فمنعه فقال : « اني لا أنسى حسن صنيعك أيها الأمير الجليل » ثم قبل وجنات أولاد الأمير ، كما قبل غريباً قبلة أودعها كل حرارة قلبه .

ولا بد أن يكون القارىء قد عرف أن أمين بك هو زوج تلك المرأة والدة غريب ، لكنه هو لم يعرف ولده لأنه لم يكن قد ولد يوم فارقه ، ولا الولد يعرف أن له أباً غير الأمير بشير ، كما ان هذا لم يكن يعلم من أين جاءت جميلة أم غريب .

ولعل حكاية أمين بك قد ذكرته بسلمى ، وربما مر بذهنه الشك في أن تكون هي جميلة بعينها ، على أن اعتقاده السابق بانها من أهل صيدا واستبعاده نجاة مثل هذه المرأة حاملاً وفرارها الى لبنان بغير أن تخاف انكشاف أمرها كل ذلك قد رفع الشك من ذهنه .

فلما قبل أمين بك يده وأراد الخروج قال له : « ما معنى هذا يا أمين بك ؟ » .

قال : « انني خارج وسأستخير الله فيما أفعل وأخشى ألا يقدر لي الرجوع اليكم ولعل الله يجمعنا مرة أخرى » .

قال ذلك وخرج ولم يلتفت وراءه ، فأخذ الأمير يفكر في أمره وقد ساءه خروجه على هذه الطريقة ، لكنه عذره لتهيج أفكاره وتأثر عواطفه ، وظن أنه ربما يكون خطر له أن امرأته قد ذهبت الى مكان يعرفه فذهب للبحث عنها .

أما أولاد الأمير وغريب فلم يفهموا معنى هذا الوداع لأنهم لم يكونوا عالمين بالأمر .

وبعد بضعة أيام تلقى الأمير بشير كتباً من لبنان ، بينها كتاب من جميلة ذكرت فيه أنها لم تعد تستطيع صبراً على فراق غريب ، والتمست من الأمير أن يرسله اليها . فسأل غريباً عن رأيه فقال : « اني أيضاً أرغب في الذهاب الى بيت الدين لمشاهدة والدتي » .

فأرسل معه بعض رجاله يوصلونه الى لبنان ، وأوصاهم بأن يعتنوا به ، فودعوه وتوجهوا قاصدين لبنان .

أما ما كان من أمر أمين بك فانه بعد خروجه من عند الأمير بشير سار تواً الى قصر محمد علي باشا وطلب مقابلته فأذن له : فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه وشكره على عفوه عنه ثم قال له : « أيها العزيز ، انه لم يعد يطيب لي المقام بهذه الديار ولا التوجه الى بلاد الشام ، وها أنذا بين يديك فهل لك أن تقبلني من بعض خدمك على شرط أن ترسلني الى جهة يكثر فيها الموت ، لأني صرت أفضل الموت على حياتي بعد فقد زوجتي وولدي ، وكنت قد عولت على الانتحار لكني وجدت ان ذلك ليس من شيم الرجال ، فقلت لعل العزيز يرسلني في حرب فأحارب حتى تأتي ساعتي فأموت في ساحة القتال فذلك خير من أن أقتل نفسي بيدي » .

فتأثر محمد علي من هذا الكلام ، وحاول أن يثنيه عن عزمه فلما وجده مصراً عليه قال : « اذا لم يكن بد من ذلك فأنا أرسلك الى جهات السودان لتحارب مع ولدي اسماعيل هناك ، وستسير اليه مع فرقة من الارناءوط والدلاتية تقرر امداده بها اليوم » .

فقال أمين بك : « ذلك جل مرادي ، وانما أسألك أن تدعوني باسم سليمان بدلاً من اسمي الحقيقي اخفاء لحقيقة أمري » .

فقال محمد علي : « حسناً » . وأمر بأن يلحق بالفرقة المسافرة ضابطاً من ضباطها . فسارت الحملة في ذلك النهار وهو معها ، بعد أن ودع العزيز فدعا له بالعودة سالماً ، ولم يعلم الأمير بشير ولا أحد ممن معه بذلك .

صاحب المنديل

كانت جميلة بعد أن فارقها غريب ، لم يعد يهنأ لها طعام ولا رقاد ، وكانت تنتظر ورود رسائله لتقرأها وتقبلها ، ولم يكن لها من تعزية غير ذلك سوى التحدث مع سعيد مظهرة له مكنونات سرها ، فكان يحاول الترفيه عنها .

ولما ورد لها كتاب غريب الذي وصف لها فيه زيارته للقاهرة وحدثها بما علمه من قصة هلاك المماليك كلهم ما عدا واحداً منهم كان قد تأخر عن وقت الدعوة فنجا من المذبحة ، خفق قلبها وبعثت في طلب سعيد ، فأطلعته على كتاب غريب وما فيه ، فأطرق هنيهة ثم قال : « يا سيدتي عسى أن يكون ذلك الرجل سيدي البيك » .

فبكت جميلة قائلة : « لا أعلم يا سعيد لماذا خفق قلبي عند قراءتي هذه الفقرة في كتاب غريب ، ولكن كيف العمل لنعلم الحقيقة ؟ » .

فقال لها سعيد : « أرى يا سيدتي أن نكتب الى سعادة الأمير بحقيقة الحال لعله يساعدنا ويبحث ذلك الأمر » .

فقالت : « أواه يا سعيد ، لا يسعني ذلك بعد أن بالغت في الكتمان » .

فقال سعيد : « وما المانع من أن نخبره بحقيقة حالنا الآن ، وما أظن إلا أنه يعذرنا ويساعدنا » .

فتنهدت جميلة ونظرت الى سعيد وقد خنقتها العبرات ثم قالت : « اني أخشى أمراً آخر » .

فقال : « وماذا عسى أن يكون ذلك الأمر؟ هل هناك أمر لا أعرفه أنا ؟ »

فقالت : « نعم يا سعيد ، هناك سر لم أطلعك عليه بعد » .

فنظر اليها منهدشاً وقال : « وما هو ذلك السر ؟ » .

قالت : « هو خطأ وقعت فيه منذ صباي ، ولا أقوله لك ما لم تتعهد لي بكتمانه كعادتك معي في حفظ الأسرار » .

فقال : « يجب أن تثقي بي يا سيدتي بعد الذي رأيته من صادق خدمتي لك واني أتعهد لك بما تريدين » .

فقالت : « اعلم يا سعيد أني لست من نسل المماليك كما تظن ، وانما أنا من بنات أسرة بني شهاب » .

فقال سعيد : « أنت من أسرة سعادة الأمير بشير ؟ ! » .

قالت : « نعم ، الا تذكر كيف كنت أود المجيء الى لبنان على أثر خروجنا من مصر ؟ » .

فقال : « وكيف صرت زوجة لسيدي ؟ » .

قالت : « اعلم أني ابنة أمير شهابي من قرية تقرب من هنا ، وكان عليه رحمه الله (لأني سمعت انه توفي) يريد أن يزوجني بواحد من أولاد عمي لم أكن أحبه بل كنت أكره معاشرته رغم خطبتي له منذ ولادتي ، وقد وعد أبي بذلك أباه . وأصر على الوفاء بوعده ، وكنت عند ذلك لا أتجاوز الثالثة عشرة من العمر فأضمرت التخلص من معاشرة ذلك الخطيب البغيض ، وانتهزت فرصة مقابلتي سيدك حين قدم الى هذه الجهة مع بعض أقاربه الأمراء المماليك فراراً من الحملة الفرنسية التي فتحت مصر ففررت معه ، وكان شاباً لطيفاً فأحببته وتزوجت منه . أما كيف كان ذلك فقد فاتحني أبي في أمر الزواج بابن عمي في ذلك اليوم ، فلما سكت عن الجواب فهم اني راضية ، وبعد قليل خرج من البيت فجلست أفكر في أمري حتى ضجرت فخرجت الى الكروم ومكثت هناك مرتبكة حتى غربت الشمس ، فشاهدت جماعة على خيول كأنهم مسافرون ولمحت بينهم سيدك وجماعته ، فوقفت مذهولة وقد كدت أمل الحياة ، فاقترب مني رجل منهم يسأل عن الناطور ليشتري عنباً ، وكنت قد شاهدته مراراً قبل ذلك الوقت فلم أخف منه ، فلما عرفني قال : « ما بالك هنا أيتها السيدة ؟ » . فقلت : « اني أتمشى بين الكروم » . فقال : « تعالي معي لأوصلك الى بيتك لأن الشمس قد غابت وقد يخشى عليك . فسرت معه وأنا لا أعلم ماذا أفعل ، فاذا به قد أخذني الى جماعته وأنا لا أدري ، ثم رأيتهم يهمسون فيما بينهم ، وبعد قليل سألني سيدك هل أقبل الزواج به فلم أجبه لأن الحياء غلب علي ، غير أني لشدة غيظي من والدي ورغبتي في الفرار من الحفرة التي حفرها لي رضيت بالمسير معهم في ظلام ذلك الليل وبقيت بضعة أيام ودموعي لا تجف ، وما زلنا سائرين حتى وصلنا الى صيداوهناك عقد سيدك قرانه بي ، ولما عاد الى مصر أخذني معه ، وما زلت معه الى أن كان ما تعلمه . ولذلك تراني أود اخفاء أمري لئلا أقع في بلاء أعظم ، لأن أبي كان قد أباح دمي ، وكذلك الأمير بشير لأنه كان حاكماً على لبنان اذ ذاك أيضاً » .

فدهش سعيد لهذه الحكاية التي لم تكن تخطر له ببال ، وقال لجميلة : « اذن أنت من أقرباء الأمير بشير ، والآن ماذا نفعل ؟ » .

قالت : « ما لنا إلا الاعتصام بالصبر الجميل ، وأنا واثقة بأن سيدك ان كان ما زال حياً

لا بد من أن نجتمع به باذن الله والله مع الصابرين . وأما الآن فانا قلقة على غريب » .

فأخذ سعيد يطيب خاطرها ويخفف قلقها حتى صبرت ، ولكنها نهضت ذات يوم من النوم مذعورة وبعثت الى سعيد وقالت له : « قد نهضت في هذا الصباح من النوم منزعجة على أثر حلم هالني أمره ، ولذلك تراني قلقة على غريب ولم يعد لي صبر على فراقه ، فاكتب الى الأمير بالنيابة عني كي يبعث به الي اذ لا تعزية لي سواه ، فعسى الله ألا يحرمني منه » قالت ذلك وتنهدت .

فكتب سعيد الى الأمير بشير بذلك ، وأرسل الكتاب مع الساعي الذي أقيم لايصال البريد اليه كالعادة .

وبعد ذلك ببضعة اسابيع جاءت البشائر الى بيت الدين بقرب وصول غريب ، فخرج الرجال لملاقاته وفي مقدمتهم سعيد وأطلقوا البنادق ترحيباً بقدومه . ثم هم به سعيد فقبله وسارع به الى والدته وكانت تنتظره عند باب الدار فقبلته وشكرت الله على سلامته ودخلت به حجرتها . وبعد أن استراح وبدل ثيابه جلست بجانبه وجاء جميع أهل القصر للسلام عليه ، فكان يسلم عليهم ويحادثهم ويلاطفهم وهم معجبون به وبلطفه .

أما والدته فرأت في جبينه أثر جرح فتقدمت اليه وسألته عن أصله فقال لها : « لهذا الجرح قصة سأقصها عليك في المساء » . فصبرت على مضض حتى ولى النهار وفرغوا من تناول الطعام والسمر ، ثم دخلت به حجرتها وجعلت تتأمله في حنو لا مزيد عليه وكأنها لا تصدق أنها تراه ، الى أن تذكرت أمر قصته فسألته ان يقصها عليها . فرواها لها منذ نزل الى ميدان السباق ثم جمح به جواد الكاشف ، الى أن ضل الطريق في الصحراء وقابله أولئك اللصوص وكادوا يفتكون به لولا أن أدركه مصري ملثم في زي أهل البدو وأنقذه من بين أيديهم . كل ذلك وهي صامتة تتأمل اشارات غريب وحديثه وقلبها يخفق لما كاد يحدق بالغلام من الخطر ، ولم تقدر أن تتمالك عن البكاء من أجل ذلك ، ومالت كل الميل لمعرفة ذلك الرجل ، فسألته : « ألم تعرف ذلك المصري الشهم ، وماذا جعله يقيم بالصحراء ؟ » .

فقال : « انه لم يشأ أن يخبرنا بحكايته ، ولكن والدي حين علم بما صنعه معنا زاره في محل اقامته ، وعلم منه قصته ، وقد جاء معه الى منزلنا وسار معنا الى مصر . وفهمت أنه كان في مصيبة عظمى فنجاه أبي منها بتوسطه له لدى محمد علي باشا . وقد كان في نيتنا أن نبقيه معنا لكي نأتي به الى هنا ، ولكنه جاء ذات يوم مودعاً ، وعاد ولم نعد نعلم مقره » .

فشعرت جميلة بأن الحديث عن هذا الرجل قد شرح صدرها ، وأسفت لعدم مجيئه الى لبنان لتكافئه على معروفه ، ولكنها لم تعلم سبب ذلك السرور وانما نسبته لنجاة ولدها من مخلب الموت .

وفيما كان غريب يحدث والدته ويشرح لها ما شاهده في مصر من الغرائب حانت منها التفاتة الى منديل من الحرير الجميل كان في يده ، فارتجف قلبها ونظرت اليه وتأملته فلم تقدر أن تتمالك عن الدهشة ، ثم أمسكت نفسها وتناولت المنديل وتأملته فاذا هو منديل زوجها وعليه زركشة من صنع يدها فقالت لغريب : « من أين لك هذا المنديل يا ولدي ؟ » .

فقال لها : « هو المنديل الذي عصب به ذلك الرجل رأسي ، وقد بقي معي حتى الآن » .

فخافت أن تكثر من السؤال فتشغل بال غريب ، وصبرت حتى تقابل سعيداً في الصباح التالي وتفاوضه في هذا الشأن ، ولكنها لم تعد تستطيع الرقاد تلك الليلة لشدة التأثر واشتغال فكرها بأمر ذلك المنديل .

وفي صباح اليوم التالي جاء سعيد لمشاهدة غريب ، فتنحت به جميلة ناحية ريثما يستيقظ غريب من نومه ، وكان ما زال نائمًا لشدة تعبه من السفر ، ثم قالت لسعيد : « أتعرف هذا المنديل ؟ » . وأرته إياه فهتف سعيد قائلاً : « هذا منديل سيدي ، من أين أتيت به ؟ » . فأخبرته بالقصة التي قصها عليها غريب .

فقال : « يا سيدتي لا يظهر من الحكاية شيء يؤكد ظنوننا » .

فقالت له : « أضف هذه الحكاية الى ما كتبه لنا غريب في كتابه الأخير من مصر » .

فقال : « هل سألته عن اسم ذلك الرجل ؟ » .

قالت : « لا وكان يجب أن أفعل ذلك فان الاسم يحل لنا هذه المشكلة ، فحالما يستيقظ أسأله عنه » .

ولما استيقظ غريب ، سألته عن اسم صاحب المنديل قائلة : « اني قضيت هذه الليلة أفكر في أمر ذلك الرجل الذي أنقذ حياتك ، ولكني لم أذكر انك لفظت اسمه » .

فقال : « ان اسمه سليمان » .

فقالت : « حسناً » . ولما وجدت اسم الرجل غير اسم زوجها انتفت الشبهة من ذهنها وقالت : « لعل المنديل وقع اتفاقاً في يد ذلك الرجل ، وعلى كل فاني استأنس به وأشتم منه رائحة زوجي » . فاحتفظت به .

بقي الأمير بشير في مصر حتى سنة ١٨٢٢ م اذ وردت فرمانات العفو عن عبد الله باشا من الباب العالي ، فشكر همة محمد علي باشا عزيز مصر ، واستأذن في العودة الى بلاده ، فطلب اليه أن يبقى في مصر وقتاً آخر وقال له : « اني لم أفعل ما فعلته مع والي عكا إلا مرضاة لك ، وأود بقاءك هنا لأنك بمنزلة ابني ابراهيم » . فشكر فضله قائلاً : « عسى الله أن يقدرني على

مكافأتك » .

فأهدى محمد علي باشا اليه والى أولاده ثلاثة فراء ، وثلاثة جياد أصيلة ، وقال له : « اذا كنت تستطيع أن تعبىء لي أربعة آلاف مقاتل من رجالك الأقوياء فافعل ، لكي أرسلها نجدة لولدي ابراهيم الذي سار لمحاربة بلاد اليونان لأنها شقت عصا طاعة الدولة العثمانية ، وعهدي برجال لبنان أشداء يعتمد عليهم .

فقال : « سمعاً وطاعة » . ثم ودع العزيز ، وسار ومعه أولاده ورجاله الى الاسكندرية ، فاذا وباء الطاعون قد تفشى فيها فنزلوا خارجها ، ثم ركبوا السفينة الى عكا ، فلما وصلوا اليها أطلقت المدافع تحية له ، وفك جنود الدولة العثمانية حصارها حسبما جاء في الفرمان السلطاني ، الذي أرسل اليهم على يد السلاحدار المرسل مع الأمير بشير من لدن محمد علي باشا ، ثم عاد أولئك الجنود من حيث أتوا تاركين المدينة ، وسار الأميران خليل وأمين الى بيت الدين ، أما الأمير بشير فبقي في عكا حيناً وهو موضع الاكرام من عبد الله باشا .

ولما وصل الأميران خليل وأمين الى بيت الدين ، جاء أعيان البلاد للتسليم عليهما ، وكان فرح غريب بلقائهما عظيمًا .

□

أما جميلة وسعيد فكانا في قلق بالغ تتقاذفهما الأفكار والظنون في شأن المنديل الذي حصل عليه غريب من الرجل الذي أنقذه من اللصوص في مصر ، وكانا في انتظار مجيء الأمير بشير لعلهما يستطلعان الحقيقة منه بوجه من الوجوه ، وقد حاولا معرفة ذلك من ولديه خليل وأمين فلم يعرفا منهما أكثر مما عرفاه من غريب .

ولم يعد الأمير بشير الى بيت الدين إلا بعد وقت طويل ، لاشتغاله ببعض الشؤون الخاصة بامارته وغيرها . فلما عاد اليه ، بقي وقتاً طويلاً آخر مشغولاً باستقبال وفود المهنئين

وفي ذات ليلة ، وكان القمر بدراً والجو صافياً ، أحب الأمير أن يقضي بضع ساعات في الصحن الداخلي بالقصر أمام بركة الرخام ، ففرشت الطنافس في ذلك الصحن ، وجلس الأمير وأمامه امرأته وجميلة وأولاده بعد تناول العشاء وشرب القهوة . فاتكأ في مجلسه يتأمل جمال الطبيعة ويطلق لأفكاره العنان ، فجال في خاطره سفره الى مصر وما كان من ترحيب عزيزها به ، الى أن طرقت ذهنه مسألة غريب وجموح الجواد به هناك فالتفت بغتة الى امرأته قائلاً : « أتذكرين يا أم خليل قصة الأميرة سلمى » .

فخفق قلب جميلة ،وقالت زوجة الأمير : « نعم أذكرها ولا أنساها ، لأني أحبها محبة

عظيمة ، ومما زادني تذكراً لها أن عزيزتي جميلة تشبهها شبهاً عجيباً كما ذكرت لك غير مرة » .
فازداد خفقان قلب جميلة حتى انها لم تعد تتمالك عن إظهار عواطفها ، فقال الأمير : « وماذا تظنين أن تكون الآن ؟ » .
قالت : « ما أظن أنها باقية على قيد الحياة ، فرحم الله أباها وعفا عنه فهو سبب فقدها . لكن ما الذي جعلك تتذكرها الآن ؟ » .
قال : « سمعت في أثناء سفري قصة عجيبة سأقصها عليك فيما بعد ، لأني أوصيت بألا أبوح لأحد ، ولكني وأنت جسد واحد حسب قول الانجيل فلا أكون خالفت الوصية » .
ولا تسل عن حال جميلة وقتئذٍ فانها خافت أن يكلمها الأمير فيتلعثم لسانها لشدة تأثرها فينكشف أمرها ، على أنها كانت متشوقة لسماع تلك الحكاية ولم تستطع اظهار تلك الرغبة ، بل لم يكن في امكانها أن تسأل الأمير عن ذلك لأنها كانت شديدة الاضطراب وقد خالج قلبها الخوف والهلع ـ وهمت بالانصراف من الغرفة ريثما يسكن روعها فلم تستطع الوقوف .
فقالت زوجة الأمير : « ما المانع من أن تقص علينا تلك القصة الآن دون أن تذكر اسماء الأشخاص ، ثم توضحها لي بعد ذلك بالتفصيل ؟ » .
فقال الأمير : « أخشى أن أكون قد خالفت الوصية ، وهذا أمر لا يجمل بمثلي ـ على أني أقول لك الآن كلمة واحدة من تلك القصة وهي اني التقيت في سفري الى مصر بالرجل الذي اختطف سلمى وأطلعني على قصة اختطافها » .
وما أتم عبارته حتى تنهدت جميلة من صميم قلبها ، وأغمي عليها . وكان غريب بجانبها فذعر وصاح بها قائلاً : « أماه ، أماه ـ ماذا بك ؟ » . ثم بادر الحاضرون فأتوها بالمنبهات ورشوا وجهها بالماء حتى أفاقت وهي لا تتمالك عن التنهد والبكاء ، فاضطرب الجميع وظنوا أنها أصيبت بداء الصرع أو غيره من الأدواء العصبية ، فأخذوا في اسعافها ومواساتها حتى سكن ما بها وأحبت أن تعتذر عما سببته لهم من الازعاج ، فتجلدت وأخذت تتظاهر بأن ذلك حدث لها لغير سبب تعلمه .
على أن الأمير لم يقتنع بذلك الاعتذار ، ولا سيما أنه كان قد خامره الشك في أمر جميلة ، وبقي هذا الشك يختلج في صدره الى أن جاء بيت الدين ، ولعله تعمد الاشارة الى تلك الحكاية ليرى مدى صحة ظنه ، فلما ظهر منها ذلك الانفعال لم يجد له سبباً غير ما حكاه . على أنه لم يشأ أن يلح عليها مراعاة للطف مزاجها وخوفاً عليها مما هو أعظم من ذلك ، فأخذ يمهد لها العذر وقال : « نعم ان هذا الاغماء كثيراً ما يصيب صاحبات المزاج العصبي » . وجعل يراجع في ذاكرته ما عرفه عن جميلة منذ أول ساعة عرفها فيها ، فتذكر أنها لم تخبره عن أصلها بل كانت تحاول اخفاء ذلك ما استطاعت .

ومرت كل هذه التصورات في مخيلته بأسرع من لمح البصر فاستأنف الحديث مظهراً أنه لا يعلم شيئاً من أمر جميلة وقال لامرأته : « قلت لك أني سأخبرك بهذا الحديث في مساء هذه الليلة أو غداً ان شاء الله ، إلا ان عزيزتنا السيدة جميلة قد كدرت صفاءنا الآن بما عرض لها في هذه الليلة » .

وكانت جميلة متكئة على صدر غريب لا تبدي حراكاً ولا تنطق بكلمة . وشعر الأمير بذلك فخاف عليها فقال لها : « لعل الأفضل لك أن تسيري الى فراشك ، فربما كان ما عرض لك من تأثير ضوء القمر » .

فلم تجبه ولكنها حاولت النهوض فلم تستطع لأن ركبتيها كانتا ترتجفان رغم ارادتها ، ولم يكن ذلك إلا ليزيد ارتباكها وخجلها ، لكنها تجلدت ونهضت بمساعدة غريب وسارت تواً الى حجرتها وغريب معها ، فاستلقت على الفراش وأطلقت لنفسها عنان البكاء لأن العبرات كانت قد خنقتها .

فاضطرب غريب وأخذ يكلمها ويسألها عن سبب ذلك ، فلم تجبه وأشارت اليه ألا يرفع صوته لئلا يعلم أحد ببكائها . فلم يسعه إلا السكوت وصار يبكي لبكائها .

وأطلقت هي العنان لهواجسها وأفكارها ، فتمثل لها زوجها كما شاهدته في المرة الأخيرة خارجاً من البيت راكباً جواده قاصداً القلعة ، وزاد بها الوجد حتى ظنت ذلك الخيال حقيقة فصاحت وهي لا تشعر منادية : « أمين . . أمين ! » . فحسب غريب أنها تريد أميناً ابن الأمير بشير ، فخرج وعاد به ، فلما دخل ووجدها على تلك الحال قال لها : « ها أنذا يا خالتي ، فماذا تريدين ؟ » .

فانتبهت لنفسها ونهضت من الفراش قائلة : « أنا لم أنادك يا عزيزي ، وقد ناداك غريب خطأ » . فقاطعها غريب قائلاً : « بل سمعتك ترددين اسم أمين أكثر من ثلاث مرات وليس عندنا أمين آخر هنا » .

فقالت : « اذن فالخطأ مني أنا » .

فأخذ أمين يلاطفها ويخفف عنها ويأتيها بماء الزهر وغيره من المنعشات تسكيناً لعواطفها .

أما الأمير بشير فسأل امرأته : « هل هذه الأعراض أصابت جميلة من قبل ؟ » .

فقالت : « ان هذه أول مرة شاهدتها كذلك » . وظهر على زوجة الأمير أثر الانزعاج لذلك المنظر ، فآثرت الدخول الى حجرتها ، ونهض الأمير بشير فدخل مخدعه وهو يفكر في أمر جميلة ، وبعث يسأل عن حالتها ، وكذلك صنعت زوجته ، فبعثت اليهما بأنها في خير خوفاً من أن يأتيا اليها ويشاهدا سوء حالها .

وأخذت جميلة تلوم نفسها على ما ظهر منها ، وهي موجسة خيفة من أن يؤدي هذا الى انكشاف أمرها ، ولو أنها علمت أن الأمير قد صفح عن عملها وغمل زوجها لما تأثرت الى هذا الحد ، ولكنها كانت تعتقد أن انكشاف أمرها ربما آل الى انتقام الأمير منها فضلاً عن انه يجلب العار لها ولابنها .

فقضت الليل وهي في لجج من الهواجس والمخاوف ، حتى ضاق بها المخدع فنهضت من فراشها فاذا بغريب قد نام ففتحت باب المخدع رويداً رويداً وغادرته والسكون مستول على القصر ، فلا يسمع فيه إلا صوت السواقي التي تسقي بساتين بيت الدين ، فأخذت تنقل قدميها بكل هدوء حتى بلغت شرفة تطل على كروم القرية وبساتينها ، فتطلعت منها الى الوادي المحفوف بأشجار التوت والتين والكرم الممتد الى البحر المتوسط بعد أن يمر متعرجاً بين جبال شامخة مكسوة بتلك الأشجار ، وراق لها التوسد على تلك التلال ، لكنها خشيت أعين الرقباء فاستترت وراء الشجر وقد استولت الرهبة عليها وأثر في نفسها ذلك المنظر العجيب ، وأخذت تتأمل ما حدث منها وما سمعته من الأمير بشير . وكانت كلما ذكرته يختلج قلبها وتصطك ركبتاها ، ثم تحدث نفسها وتبحث عن وسيلة تصل بها الى معرفة حقيقة الخبر فكانت تقول تارة : « الأفضل أن أطلع الأمير على حقيقة أمري وأترامى على قدميه وأطلب السماح منه وأستطلعه حقيقة الأمر فعسى أن يكون حبيبي لا يزال على قيد الحياة » . ثم ترجع فتقول : « لا لا . أظن ذلك ، فقد أصبح في عالم الأموات منذ سنين » . ثم تعود فتتذكر ما كتبه اليها غريب عن الرجل الذي نجا من المماليك ، فتعلل نفسها بذلك .

وقضت ساعة في تلك الهواجس ومثلها ثم طرق ذهنها بغتة خادمها سعيد ورئيس الدير ، فخفت هواجسها اذ علمت أنهما عالمان بأسرارها فعزمت أن تخلو الى سعيد في الصباح وتطلب اليه أن يدعو لها رئيس الدير ليتفاوضوا جميعاً في الأمر . وقد هان عليها كشف أمرها للأمير على يد رئيس الدير لما علمته من منزلته عنده . فشعرت بأن عبئاً ثقيلاً تزحزح عن صدرها وانفتح لها باب الفرج ، ثم أحست بالبرد فعادت تمشي الهوينى الى مخدعها ، وباتت ليلتها تحلم بأنها بلغت غاية السعادة .

وفي الصباح بعثت زوجة الأمير تسأل عن صحة جميلة فقيل لها : « انها في عافية وسلام » . ولما استيقظت جميلة بعثت في طلب سعيد ، فلما حضر قصت عليه ما كان من الأول الى الآخر ، وطلبت اليه أن يدعو الرئيس للمفاوضة في ذلك ، فلما حضر الرئيس قبلت جميلة يده وجلس الثلاثة يتفاوضون .

فقالت جميلة : « ان قلبي أيها الأب المحترم لم يعد يحتمل شيئاً لشدة ما عانيت في الليلة الماضية ، وقد شعرت بأنني لا أستطيع أن أصنع شيئاً اذا لم تمداني برأيكما » .

ثم تنهدت وتأوهت وواصلت حديثها فقالت : « وما أظن أن تجدد آمالي في بقاء زوجي حياً ، قائماً على الوهم فقط ، فهناك قرائن وأدلة كثيرة على ذلك ، من بينها ما عرفناه عن نجاة أحد أمراء المماليك من مذبحة القلعة ، ثم هذا المنديل الذي أتى به غريب من الرجل الذي أنقذه من الموت ، فانه منديل زوجي . وأخيراً ما ذكره الأمير أمس من أن الرجل الذي اختطفني لا يزال على قيد الحياة ، وهذا أكبر دليل عندي . وعلى هذا أريد استطلاع قصة ذلك الرجل من الأمير ، فانها تزيل كل شك ، ولا أستطيع أن أكون أنا السائلة عن هذه القصة ، مخافة انكشاف أمري ، و لما كان فراري مع زوجي مخالفاً لارادة أبي ولمبادىء الأسرة ، فأخاف أن يكون في كشف أمري ما يمس كرامة ولدي » .

وكان رئيس الدير لا يعلم خبر اختطافها ، ولا كونها من أسرة الأمير بشير ، فأبهم عليه الأمر ، ولم يفهم مرادها ، ولاحظ سعيد ذلك ، فقص عليه حكاية سلمى منذ خروجها من بيت أبيها ، فعجب الرئيس لذلك الاتفاق الغريب ، ثم تبسم ونظر الى جميلة بوجه ضحوك وقال : « طيبي نفساً يا سيدتي ولا تخافي ، فاني قد تعهدت لك منذ عرفتك بأن أقوم لك بكل خدمة أقدر عليها . ويلوح لي الآن أني قادر بعون الله على أن أقوم لك بهذه الخدمة » .

فتنهدت جميلة قائلة : « انك بذلك يا حضرة الأب تكون قد انقذت نفساً من الموت ، وعسى أن تكون العاقبة خيراً ويكون زوجي لا يزال على قيد الحياة فتكون قد أنقذت نفسين » .

فأسرع سعيد وقبل يدي الرئيس وجثا عند قدميه قائلاً : « انك اذا فعلت ذلك أيها السيد المحترم أكون لك عبداً الى الأبد ، فبحياة كهنوتك دبرنا برأيك » .

فقال لهما الرئيس : « طيبا نفساً وقرا عيناً ، فها أنذا ذاهب الى الأمير مساء اليوم ، لأني أخشى ألا تتسنى لي مقابلته في النهار لكثرة شواغله في هذه الأيام ، لأن الأمير عباساً الذي تولى لبنان في المدة الأخيرة يسعى في استعطافه وقد توسط في أمر الصلح بينهما المشايخ والأمراء فصار مجلس الأمير لا يكاد يخلو منهم . أما في المساء فالغالب أن يكون المجلس خالياً من مثل هذه الشواغل ، ومسألتنا هذه غاية في الدقة وينبغي أن أخاطب فيها الأمير ملتزماً جانب الحذر والاحتياط خوفاً من غضبه ، لأنه اذا غضب يصعب استعطافه ، وعلى كل حال يجب علينا أن نتكل على الله القادر على كل شيء ، ومن الآن فصاعداً سأصلي من أجلك يا ابنتي ومن أجل زوجك عسى الله أن يجمعكما على خير » . قال ذلك ونهض ، فنهضت جميلة وقبلت يديه ، وفعل سعيد مثل ذلك ، وشيعاه ورجعا .

وفيما هو خارج من دار الحريم ، سمع أحد حراس قاعة مجلس الأمير يناديه قائلاً : « ان الأمير بشيراً يدعوك اليه » . فصعد السلم حتى دخل القاعة ، فرأى الأمير وحده فتعجب لأن

ذلك قلما يتفق للأمير بشير . فلما دخل وحيى رد الأمير تحيته بمثلها وقبل يده ، فتوسم في وجه الأمير بعض ملامح الكدر والارتباك ، وجلس ساكتاً وقد اشتغل باله ، ففاتحه الأمير بالخطاب قائلاً : « أراك شرفت دارنا هذا الصباح يا حضرة الرئيس بعد أن طال غيابك » .

فقال : « أنت تعلم أيها الأمير اننا لا يمكن أن ننسى أياديك البيضاء ، وقد تشرفت بزيارتك والسلام عليك يوم مجيئك من الديار المصرية ، ثم رأيت كثرة الشواغل التي تتجاذبك فرأيت ألا أشغلك بزيارتي حتى تفرغ مما أنت فيه » .

فقال الأمير : « وكيف شرفتنا بالزيارة هذا الصباح ؟ » .

فبغت رئيس الدير ، اذ لم يكن ينتظر هذا السؤال من الأمير ، لكنه تجاهل وأجابه قائلاً : « اني أتيت في هذا الصباح لزيارة صديقتي السيدة أم غريب » .

فقاطعه الأمير مازحاً وقال : « أدام الله هذه الصداقة بينكما ، ولكني لا أظن مجيئك مبكراً في هذا الصباح كان من تلقاء نفسك » .

فتأكد الرئيس أن الأمير يريد استطلاع سبب مجيئه ، فتقدم نحوه باهتمام وقال : « ان حقيقة الأمر أيها الأمير الجليل اني جئت بدعوة من السيدة جميلة لتشكو لي ما ألم بها أمس من العوارض التي كادت تقضي عليها ، وقد أفهمتني أموراً أحبت كتمانها عن سعادتكم خوفاً من غضبكم ، لأن حكايتها أغرب من حكاية السيدة سلمى التي عرضتم لذكرها مساء أمس » .

فضحك الأمير قائلاً : « ان قصة السيدة أم غريب ليست غريبة عن الأمير بشير ، وان كانت غريبة عن قدسك . فان الذي عرف بمجيئها الى هذه القرية ساعة وصولها لا تخفى عليه حكايتها وان حاولت هي اخفاءها . وقد قرأت حكايتها أمس على وجهها مكتوبة بيراع عواطفها ، ولولا خوفي عليها أمس أن تذهب فريسة الخوف والوجل لصرحت لها بذلك ، ولكنني تجاهلت ونصحت لها بأن تذهب الى مخدعها تلافياً للأمر ، وكان في نيتي أن أدعوك في هذا النهار لأجعلك واسطة للتفاهم بيننا ، لأني أخشى لشدة تأثرها ان تصاب بسوء ، وقد أوصيت الحراس بألا يأذنوا لأحد بالدخول علي ، لكنني أخبرك بأنني عفوت عن زوجها يوم حدثني بحديثه على أثر انقاذه غريباً من مخالب الموت ، وهب انني لم أعف عنه فاني أضن بحياة جميلة لان مثيلاتها قليلات » .

فأثنى رئيس الدير على أريحية الأمير ومروءته وشهامته ، وبقي مصغياً ليسمع ما يأمر به ، فقال : « كنت أحب الآن أن آتي بها الى هنا وأطلعها على حكاية زوجها ، ولكن أرى أن ذلك قد يحملها على الشك في مقصدي فترتعب ، فالأفضل أن تذهب أنت اليها وتشرح لها كل ما قلته لك ، ثم تأتي بها الى هنا بعد أن يطمئن قلبها » .

فنهض الرئيس فرحاً ، ومضى الى جميلة فاذا هي لا تزال تحدث سعيداً بتلك القصة ،

فلما رأته تغير لونها وخافت أن يكون لذلك سبب يدعو الى الخوف ، فابتدرها هو بالكلام قائلاً : « نشكر الله تعالى الذي وفق سعينا » .

فاستبشرت جميلة وشكرت الله ، فأطلعها الرئيس على كل ما سمعه من الأمير ، فانشرح صدرها ولكنها بقيت خائفة من مقابلة الأمير ، فأخذ بيدها ، ومضى بها الى حجرة الأمير ، ومعهما سعيد ، ثم دخل الرئيس أولاً وأمسك جميلة بيدها وأدخلها عليه وهي مطرقة فلما وصلت الى مجلسه ترامت على قدميه باكية وقبلتهما قائلة : « اصفح أيها الأمير عن الشقية المخطئة العقوق ، أو فاقتلها فانها تستحق القتل » .

فأمسك الأمير بيدها وأنهضها قائلاً : « أهلاً ومرحباً بابنة عمي سلمى ، لقد صفحت عنك يا عزيزتي والله غفار الذنوب ، تعالي واجلسي الي واتركي عنك الخوف » .

ثم بعث الى امرأته ، فلما حضرت أطلعها على حقيقة الأمر وجلس يقص عليهم حكايه أمين بك وقد ذهل الجميع واستولت السكينة عليهم وكأن على رؤ وسهم الطير وهم ينتظرون ما سيكون من تتمة هذا الحديث .

أما جميلة فكانت تنتظر ختامه بفروغ صبر لأنها كانت عالمة ببداءته فلما وصل الأمير الى وداع أمين بك له ولأولاده وذهابه قالت : « والى أين توجه ؟ » .

قال : « لا أعلم يا عزيزتي ، ولو علمت يومئذٍ أنه لن يرجع ما تركته يذهب ، على أنه لو علم أن زوجته عندي لما سمح بفراقي ، ولكن ما العمل وهذه ارادة الله » .

فتقدم سعيد واستأذن الأمير في الكلام وقال : « ما الفائدة يا سيدي اذا سمعنا بوجود سيدي ولم نره ، فالآن يجب بعد أمر سعادتكم أن ندبر وسيلة لنصل بها اليه » .

فقال الأمير : « لا بد لنا من ارسال رجل خبير بأحوال الطريق يتوجه الى مصر ومعه كتاب الى العزيز أطلب اليه فيه أن يساعده في البحث عن أمين بك » .

فقال سعيد : « أنا أذهب في هذه المهمة وأرجو أن أعود اليكم به سالماً ان شاء الله » .

فقال الأمير : « سننظر في ذلك غداً » .

فقال سعيد : « يا سيدي لا حاجة بنا الى التأجيل ، فاني أعلم أن سيدتي كأنها على جمر الغضا . وأما أنا فلا تسأل عن قلبي الآن . فأرجو أن تأذن لي في الذهاب الى مصر اليوم للبحث عن سيدي ، فخير البر عاجله » .

فأعجب الجميع بشهامة سعيد وغيرته ، وأمر الأمير كاتب أسراره المعلم بطرس كرامة بأن يكتب كتاباً الى محمد علي باشا ليساعد سعيداً في البحث عن سيده ، وأخذ سعيد يعد معدات السفر ، وما حان الظهر حتى ودع الأمير وأهل القصر ولا سيما جميلة وغريباً ، وخرج من بيت الدين راكباً والجميع يدعون له بالتوفيق .

وكانت جميلة قد التمست من الأمير أن تبقى حكايتها مكتومة عن غريب ، حتى لا يتكدر ان لم يقدر لهم الاجتماع بأبيه ، على أن يطلع عليها بعد هذا الاجتماع ، فوافق الأمير بشير على ذلك قائلاً : « انني أتمنى أن يجمعنا الله بأبيه ، ولكني سعيد لأنه حتى الآن يحسب نفسه ابن الأمير بشير ، فاتركوه على هذا الاعتقاد حتى نرى ما يكون » .

وخرجت جميلة من عند الأمير ومعها زوجته ، ولم تفترقا طول النهار ، وقد أخبرتها هذه بانه لم يعد من أسرتها أحد لأن والدتها توفيت بعد وفاة والدها بقليل .

أما غريب فلبث لا يعلم شيئاً من حكاية أبيه . فلما جاء سعيد لوداعه عجب من ذلك وسأله : « الى أين أنت متوجه ؟ » . فقال : « الى مصر ، لأؤدي رسالة خاصة من الأمير بشير الى عزيزها محمد علي باشا » .

ثم سار سعيد قاصداً مصر ومعه كتاب الأمير ، وقد عقد النية على ألا يعود الى لبنان إلا وسيده معه . وكان سعيد من أصحاب الغيرة والعزيمة والتدبير فضلاً عما عهد فيه من الأمانة والوفاء .

فلما بلغ القاهرة ، مضى لتوه الى القلعة لمقابلة محمد علي باشا ، فقيل له : « انه في قصره بشبرا منذ بضعة أيام » .

فسار الى شبرا ، وكان يعرف القاهرة وطرقاتها معرفة جيدة . فلما وصل الى باب القصر سأله الحراس عن غرضه فقال :

« معي كتاب للباشا ، وأريد أن أسلمه اليه يداً بيد » . فاستأذنوا الباشا في ادخاله عليه فأذن له .

ودخل سعيد وفي يده كتاب الأمير ، فقبل يد محمد علي باشا ودفع اليه بالكتاب . فلما وقف على ما فيه التفت الى سعيد قائلاً : « هل أنت سعيد خصي أمين بك ؟ » .

قال : « نعم يا مولاي » . فقال الباشا : « وأين كنت الى الآن ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! . ان سيدك قد سار الى الأقطار السودانية طلباً للموت بعد أن قنط من الحياة لأنه لم يعلم مقر زوجته فأحب الانتحار ، ثم رأى أن يسير الى حيث يكثر الموت لعله يموت موتاً شريفاً . وقد نصحت له بأن يعدل عن هذا ، فلما أبى بعثته مع حملة كانت متوجهة الى السودان لامداد ابني اسماعيل » .

فبغت سعيد وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . ثم أطرق هنيهة وقال : « لا بأس ، لعله خير ، وهل تعلم يا مولاي أين يكون الآن في بلاد السودان الواسعة ؟ » قال : « الغالب أنه يكون فيما بين الخرطوم وسنار ، أو قبل ذلك بقليل . لكن ما غرضك من هذا السؤال ؟ » .

فقال سعيد : « أريد أن أسير اليه بنفسي لعلي التقي به أو يصيبني ما أصابه » .

فقال الباشا : « ولكن هناك أخطاراً جمة ومشقات عظيمة فلا يستطيع الرجل أن يسير منفرداً في تلك الأصقاع » .

فتبسم سعيد قائلاً : « ان عبدك أيها العزيز يعرف الأصقاع السودانية شبراً شبراً ، وأعرف لغة تلك البلاد وكل عوائدها ، وفي نيتي أن أدخل فيها بينهم كواحد منهم وسأوصل ما أستطيع ايصاله من الأنباء السرية الى قواد جنابكم هناك ان شاء الله » .

ثم قبل يد الباشا بعد أن أخذ منه كتاب توصية لابنه ، وأخفى ذلك الكتاب في بطانة حذائه ، وقد اختلج قلبه في صدره خوفاً على سيده من الانتحار أو من الوقوع في التهلكة ، فقضى بقية ذلك اليوم وسواد ليله في التأهب للمسير ، وعمد الى شحم دهن به جلده كما يفعل السودانيون وجدل شعره جدائل متلبدة بعد أن دهنها بالشحم ، وجاء بشملة من القطن واشتمل بها . وهي قطعة مستطيلة من نسيج الصعيد تبلغ عشرة أذرع . ونظراً الى سواد لونه لم يعد أحد يستطيع أن يميزه من أهل السودان بشيء ، ثم اشترى جملاً سريعاً وأعد عليه رحلاً خفيفاً علق في كل من جانبيه قربة من الماء ، وهيأ كل ما يحتاج اليه المسافر الى تلك البلاد . وأرسل كتاباً الى بيت الدين ذكر فيه ما تم له وعزمه على السفر الى السودان .

وفي صباح اليوم التالي كان قد وقف على كل ما أراد معرفته من أخبار الحملة التي سار سيده برفقتها باسمه الجديد ، ثم غادر القاهرة على جمله بعد أن لبس تلك الثياب وعلق برجل الجمل الدرقة السودانية المصنوعة من جلد وحيد القرن صنع أهل السودان ، واعتقل رمحه وعلق سيفه السوداني بكتفه ، وسكيناً سودانية بكوعه ، وملأ ضبة من التبغ الصعيدي الذي يشربه أهل تلك الأصقاع ، وانطلق قاصداً كروسكو من طريق في الصحراء الشرقية مجاور لمجرى النيل ، على أن يسير من هناك في الصحراء التي يمسونها العطمور الى أبي حمد بجوار بربر ، ومن هناك يسير بجوار النيل الى الخرطوم .

□

بقيت جميلة تتقلب على مثل الجمر في انتظار عودة سعيد ، لم تكن تعلم بسفر زوجها الى الأقطار السودانية بل كانت تظن أنه في مصر ولا يمضي شهر بعد سفر سعيد حتى يعود به .

ومضى اسبوعان وثالث ، وفي أوائل الأسبوع الرابع جاءها البريد بكتاب من مصر ، فاذا هو من سعيد وفيه يقول :

« سيدتي المحترمة المصونة . أقبل يديك ، وبعد فأني بلغت القاهرة وبحثت عن

سيدي ، فعلمت أنه توجه الى الأقطار السودانية منذ أشهر في حملة كانت ذاهبة لنجدة اسماعيل باشا ابن محمد علي باشا . وقد اختار السفر الى هناك على ما علمت قنوطاً من الحياة لأنه لم يكن يعلم ببقائك حية ، وكان عازماً على الانتحار ثم آثر الموت في ساحة الحرب . ولكن لا تيأسي فها أنذا قد تهيأت للسفر الى الأقطار السودانية حيث أبحث عن سيدي البيك ، والغالب أني لا أغيب أكثر من شهرين ثم أعود اليكم به ان شاء الله . . خادمك سعيد » .

فلما قرأت جميلة الكتاب خفق قلبها ووقعت في حيرة ، وأطلعت زوجة الأمير بشير عليه ، فأخبرت هذه الأمير ، فطيب خاطر جميلة .

ومضى شهران ولم يرد أي خبر من سعيد ، فاضطربت جميلة ولم تعد تستطيع الصبر ، وجعلت تحسب ألف حساب لما عساه حدث لزوجها ولسعيد . ولما زاد بها القلق توجهت الى الأمير بشير وقبلت يديه وشكت اليه قلقها ، فوعدها بأن يكتب الى محمد علي باشا في مصر يسأله عن حقيقة الخبر .

وبعد أسبوعين ورد الجواب من عزيز مصر ، وفيه يقول : « ان الفرقة التي سار برفقتها أمين بك قد ألحقت بحملة ولدي اسماعيل ، والجميع الآن قادمون من الخرطوم شمالاً ومعهم الميرة والرجال ، والأغلب أن يلتقي بهم سعيد رسول سعادتكم في جهات شندي . وقد زودته بكتاب الى ولدي اسماعيل حتى لا يستغشه ، ولكي يسلم له أمين بك ، والسلام » .

فلما اطلعت جميلة على ذلك سكن روعها وأخذت تنتظر الفرج من عند الله . أما غريب فكان لا يعلم شيئاً من كل ذلك ، ويقضي بعض نهاره في التعلم وبعضه الآخر في ركوب الخيل وألعاب الجريد والسيف وأنواع الفروسية مع أولاد الأمير بشير ، وكان الجميع يحبونه حباً عظيًا .

وبعد قليل وردت الأخبار من مصر بمقتل اسماعيل باشا ومن معه في شندي بمكيدة ، وكان الأمير بشير أول من سمع ذلك الخبر ، فرجح عنده أن أمين بك قتل مع اسماعيل باشا هناك ، لعلمه بأنه معه ، فكتم الأمر عن جميلة خوفاً عليها ، ولكنه أخبر به امرأته فما لبث الخبر قليلاً حتى شاع في بيت الدين وبلغ جميلة ، فوقعت في وهدة اليأس ، وتوجهت الى الأمير لمقابلته . وكان قد أذن لها في أن تقابله في أي وقت أرادت ، جبراً لقلبها المكسور ، فلما حدثته بما سمعت قال لها : « الحق يا سلمى أن ذلك الخبر جاءني منذ بضعة أيام ولا يمكننا أن نجزم بشيء قبل أن نقف على تفصيل الحادث ،وسأكتب الى عزيز مصر لأعزيه في ولده اسماعيل وأسأله عما يعلمه عن زوجك » .

فتنهدت سلمى وصمتت وقد أغرورقت عيناها بالدموع ثم قالت : « ان قلبي يا سيدي لم يعد يحتمل العذاب والشقاء ، فيا ليتني لم أسمع بوجود أمين بك على قيد الحياة لأني كنت قد قطعت الأمل في حياته ، ولعل ذلك لم يكن إلا لعذابي تكفيراً لذنوبي التي اقترفتها في صباي » .

فأخذ الأمير يسكن روعها ويصبرها ، ثم قال : « ان الخبر الصحيح سيكون عندنا بعد أسبوعين على الكثير ، وسأكتب اليوم الى عزيز مصر » .

فانصرفت جميلة من حضرة الأمير وهي لا تكاد ترجو خيراً ، ولزمتها زوجته وأخذت تسكن روعها وتمنيها بالوعود ، ولكن قلبها لم يكن ليطمئن لشدة ما قاساه من الشقاء وما تعوده من الانقباض .

وبعد أسبوعين ورد الجواب من محمد علي باشا ونصه بعد الديباجة :

« ان التقارير التي وردت علي خطاً وشفاهاً لم تذكر شيئاً عن أمين بك ، وقد سألت بعض الذين كانوا في تلك المذبحة فقالوا : ان الرجل كان في جملة الضباط ثم لم يعد يراه أحد بعد ذلك ، لأن الذين نجوا من المذبحة قليلون وقد تشتتوا فلا يمكننا الجزم بمصيره ، اذ من الممكن أن يكون قد نجا في جملة الذين نجوا ، أو يكون قد قتل في جملة من قتلوا والله أعلم » .

فلما وقف الأمير على ما تضمنه هذا الكتاب رجح لديه أن أمين بك قتل ، ولا سيما أنه علم من كتاب سعيد أن الرجل سار الى السودان طلباً للموت ، فكيف يموت كل رفاقه وينجو هو وحده ؟ .

وكانت سلمى تنتظر ورود الجواب من مصر بفروغ صبر فلما مضى الاسبوعان توجهت الى الأمير تسأله ، فلما دخلت عليه أحب أن يخفي عليها الحقيقة ، ولكنها ألحت عليه فقال لها : « ان الأخبار الواردة من عزيز مصر تقول أنهم لا يعلمون شيئاً عن زوجك ، فقد كان مع رجال اسماعيل في شندي ولم يعودوا يعلمون عنه خبراً » .

فلم تصدق جميلة ذلك ، فأطلعها على الكتاب فتأوهت وبكت ولكنها أمسكت نفسها أمام الأمير . ولما خرجت من حضرته سارت تواً الى غرفتها فدخلتها وأغلقت الباب عليها وأخذت تندب سوء حظها وتلطم وتبكي .

وكان الأمير قد أحس منذ خروجها من عنده أنها ذاهبة الى حيث يمكنها اطلاق العنان لبكائها ، فخاف عليها الهلاك وبعث الى زوجته وأخبرها بالأمر وقال لها : « سيري الى سلمى وخففي عنها وعزيها لئلا تضر بها شدة الحزن » .

فمضت زوجة الأمير الى حجرة سلمى ، فرأت الباب مغلقاً ، وسمعت صوت بكاء ونحيب من الداخل ، فقرعت الباب قرعاً خفيفاً ، ففتحته سلمى وهي في حالة يرثى لها من

الحزن والكآبة ، فأخذت زوجة الأمير تعزيها قائلة : « تذكري أنك كنت قد يئست من الاجتماع به ، فافرضي أنك لم تعلمي بوجوده ، وفضلاً عن ذلك فاننا لم نتأكد الخبر ولعله تأخر لسبب لا نعلمه ، فاصبري والله مع الصابرين » .

فقالت سلمى وقد احمرت عيناها من البكاء : « اني لا أجهل شيئاً من ذلك يا عزيزتي ، ولكني لا أستطيع الصبر على فقده . أما قولك أننا لم نتأكد خبره فأنا لا أشك في أنه ـ والهفي عليه ـ قد صار في عالم الأموات » . قالت ذلك وتساقطت العبرات على خديها .

فقالت زوجة الأمير : « كيف يمكننا الجزم بذلك ونحن لم نتلق خبراً صريحاً ؟ فعلينا أن نثق بالله ولا نقطع الأمل » .

فأمسكت سلمى هنيهة عن البكاء ثم التفتت الى زوجة الأمير قائلة : « أنا أقول لك ما هو المسوغ لظني الذي ذكرته لك » . ثم نهضت الى خزانة وفتحتها وجاءت منها بكتاب ودفعته اليها فاذا هو كتاب سعيد الذي ذكر فيه أن سيده سافر الى الأقطار السودانية قنوطاً من الحياة ليأسه من لقائها ، وكان يريد الانتحار لكنه آثر أن يموت في ساحة الحرب على أن يقتل نفسه بيده .

فلما أتمت زوجة الأمير تلاوة هذا الكتاب ، هزت رأسها أسفاً وسكتت ، فقالت لها سلمى : « أتظنين أن من يذهب الى الحرب راغباً في الموت ينجو وحده من تلك المذبحة ؟ وكيف ينجو بغير أن يفر وهو لا يمكن أن يهرب لأنه طالب للموت ساع وراءه فمتى جاءه رحب به ؟ » .

فقالت : « دعي عنك هذه الأوهام ، فان سعيداً لم يمض عليه غير ثلاثة أشهر منذ ذهب الى الأقطار السودانية ، ولو أنه علم بشيء لكتب الينا به ، فلا مسوغ لليأس ولا فائدة منه ، وبعد قليل يأتي ولدك فيراك على هذه الحال وهو غير عالم بشيء من قصة أبيه فيزداد قلقه عليك وربما الجأك الى اطلاعه على سبب هذا البكاء ، فهل تخبرينه بالسبب الحقيقي ؟ » .

فأجابت سلمى : « لا يمكن أن أخبره ، واني أشكر الله تعالى لأني لم أطلعه على هذه القصة من أول الأمر ، ويا ليتني لم أطلع عليها أنا أيضاً اذ لا فائدة منها إلا تجديد الأحزان والأكدار » .

فنهضت زوجة الأمير وأمسكت بيد سلمى وأنهضتها قائلة : « هيا بنا يا عزيزتي نذهب الى الحديقة ترويحاً للنفس لئلا يأتي ولدك غريب ويراك على هذه الحال » .

فمسحت سلمى عينيها ولبست ثيابها وخرجت معها الى الحديقة ، فجلست هناك في ايوان (كشك) من خشب حتى آذنت الشمس بالمغيب فنهضتا وعادتا الى القصر ، فاذا بالأمير بشير يتمشى أمام حجرته فلما رآهما أشار اليهما بالمجيء اليه ففعلتا . ثم تفرس في سلمى فاذا

هي حزينة كئيبة على الرغم مما كانت تحاول اظهاره من البشاشة واللطف اكراماً له ، فقال لها : « يا سلمى اني مشارك لك في قلقك ، ولكني لا أرى مسوغاً للافراط في ذلك ، لأننا لم نعلم الحقيقة بعد ، وسأرسل رجلاً خبيراً من خاصتي الى مصر ليبحث الأمر بنفسه ويأتينا بالخبر اليقين » .

فهمت سلمى بتقبيل يده وشكرته على ذلك ، ولكن قلبها بقي غير مطمئن .

ومضى رسول الأمير الى مصر ، ثم عاد منها وليس في جعبته أي جديد في هذا الشأن ، فكل ما استطاع الوقوف عليه هو أن أمين بك كان في معسكر اسماعيل باشا الى ساعة المذبحة ثم لم يعد أحد يعلم عنه أي شيء .

فقطعت سلمى الرجاء من حياته ، وأخذت تجاهد نفسها لاخفاء حزنها حتى لا يشعر غريب بالأمر ، وكانت لا تني تفكر في خادمها سعيد الذي ذهب للبحث عن زوجها وتحدث نفسها قائلة : « ترى ماذا جرى له ؟ » . وكانت تخشى أن يكون قد أصيب بسوء ، لأنها كانت تقدر ما أظهر من الصدق والأمانة في خدمتها ، وعندما كانت تشتد بها هواجسها كانت تتعزى بترك الأمر لله يدبره بحكمته ورحمته .

مقتل اسماعيل
بن محمد علي باشا

وصل سعيد الى أسوان بعد مسير ثمانية أيام في الصحراء الشرقية . وبعد يومين آخرين وصل الى كروسكو . وهناك أعد كل ما يحتاج اليه لعشرة أيام من الماء والطعام ، لأن عطمور أبي حمد يقل فيه الماء كثيراً وتكثر فيه الأخطار .

ولاح له أن يصطحب أحداً ممن يعرفون الطريق لئلا يضل فيه ، فبحث حتى وجد تجاراً من المصريين والسوريين ذاهبين الى السودان للاتجار فيه ، على أساس أن ربوعه قد فتحت وفيها أفضل أنواع التجارة من العاج والخرتيت وريش النعام والصمغ العربي وما شاكل ذلك . وكانوا قد اصطحبوا معهم خبراء وأعدوا كل ما يحتاجون اليه .

فلما رآهم سعيد حياهم بلغة أهل السودان فردوا عليه التحية ، وعلم منهم أنهم قاصدون الى الخرطوم . فقال : « اني أيضاً قاصد اليها بكتاب الى اسماعيل باشا من محمد علي باشا أبيه » .

فأبدوا رغبتهم في أن يكون معهم ، وكان هو أشد رغبة منهم في ذلك . ثم ركب الجميع في الصباح على جمالهم ، وهي محملة احمالاً مختلفة ، فتألفت منهم قافلة ، وسارت الجمال التي عليها الأحمال على جانب والتي عليها التجار في جانب ومعهم سعيد . وما زالوا سائرين جميعاً في تلك الصحراء الرملية والشمس قد تكبدت السماء . فلما ساروا بعض النهار سألهم عن تلك الأحمال التي معهم فقالوا : « هي بضائع من قماش وأدوات ، وبعض الحاصلات من الأرز والسكر والقهوة نحملها الى الأراضي السودانية ونقايض عليها بحاصلات تلك البلاد » .

فقال سعيد : « وهل كانت هذه مهنتكم منذ زمن طويل ؟ » .

قال أحدهم : « لا عبد الخير ، لأن البلاد السودانية لم تكن التجارة فيها سهلة قبل سنتين ، بل كانت محفوفة بالمخاطر والمكاره ، وكانت حاصلاتها تأتينا على يد بعض التجار من أهلها . ولكن بعد أن بعث اليها محمد علي باشا والينا ولده اسماعيل وفتح جانباً كبيراً منها ،

دعانا اليه وشجعنا على أن نتوجه الى تلك الأصقاع ، فتمنعنا أولاً ثم قبلنا ، فزودنا بخبراء ودربنا على التصرف » .

فقال سعيد : « لا شك في أن عزيز مصر ساهر على مصلحة بلاده عامل على تقدمها وسعادتها » .

فوافقوا على ذلك قائلين : « انه ما من أحد ينكر فائدة أعماله ، ومن كان يتصور امكان وصول مصر الى هذه الحالة بعد أن كان المماليك الملاعين يستبدون بها ، فنحمد الله على نجاتنا منهم » .

فقال سعيد متجاهلاً : « ومن هم هؤلاء المماليك ؟ » .

فقال أحدهم : « هم الذين كانوا حكاماً في مصر قبل محمد علي ، وقد كانوا يقتلون وينهبون ويستبدون بغير حساب » .

وقال آخر : « نحمد الله على أننا تخلصنا من المماليك الآن ، ولكن لا يزال دوننا عراقيل أخرى تقف في سبيل نجاح بلادنا ، وأعني الأرناءوط والمغاربة » .

فسأله سعيد عن هؤلاء . فقال : « هم جنود كانوا في الحملة التي جاءت لانقاذ مصر من الفرنسيين ، ولما أراد أفندينا تدريبهم على النظام العسكري الحديث امتنعوا وأصروا على الامتناع حتى تهددوا الباشا بالعصيان لأنهم اعتبروا كل ما يخالف عاداتهم القديمة بدعة » .

فقال آخر : « ولكن لا يخفى عليك أن أفندينا عرف كيف يعاملهم ولذلك أرسلهم الى هذه البلاد المميتة ليفتحوها ، ولم يكن قصده إلا أن يشغلهم عن العصيان ولكي يغتنم فرصة غيابهم ويدرب الجنود المصريين كما يشاء » .

فقال الأول : « ليس ذلك كل ما قصده بارسال الحملة الى السودان ، وانما قصده الأول على ما علمت البحث عن معادن الذهب في أرض السودان وتوسيع التجارة » .

فقال سعيد : « وما معنى تدريب الجند على هذه الصورة الجديدة ، وما الفائدة منه ؟ » .

فقال : « الفائدة منه عظيمة ، لأن المائة من الجند المنظم تغلب الفاً من الجند غير المنظم ، وهل تظن أن الجيش الفرنسي الذي جاءنا منذ حوالي عشرين سنة لو لم يكن منظماً على النمط الحديث كان يمكنه أن يتغلب على فرسان المماليك الذين لا يبالون بالموت ؟ » .

فقال الجميع : « هذا صحيح » .

فاستأنف الرجل كلامه قائلاً : « ولأفندينا مقاصد أخرى كل منا يعرفها ، وان يكن هو لم يطلع أحداً عليها ، والكتاب يقرأ من عنوانه » .

فقال سعيد : « وما هي مقاصده ؟ » .

فقال : « ان أفندينا أصبح بعد تربعه في دست الولاية لا يقنع بحكم مصر ، ولا سيما بعد أن اختبر جنوده وأولاده في محاربة الوهابيين والسودانيين وغيرهم . ويقال أن في نيته افتتاح بلاد الشام وما وراءها ، وانه انما يدرب الجند لهذه الغاية » .

فقاطعه زميل له قائلاً : « لا يبعد ذلك أن يكون صواباً ، وإلا فما معنى زيارة الأمير بشير الشهابي أمير لبنان لمصر والمفاوضة معه سراً ؟ » .

فقاطعهم أحد الرفاق قائلاً : « ما لنا ولهذه الظنون ، ان ذلك كله رجم بالغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله . أما الشيء الذي لا شك فيه فهو أن أفندينا محمد علي دائم السعي لتوطيد دعائم الأمن وافتتاح المدارس والمعامل وغير ذلك من أسباب الفلاح ، وقد علمت أنه بعث الى فرنسا يستقدم طبيباً ماهراً لافتتاح مدرسة طبية في مصر ، وهذه مأثرة عظمى » .

وبينما هم في الحديث لاح لهم غبار عن بعد ، ثم ما لبث قليلاً حتى انكشف عن هجين فوقه رجل ملثم بكوفية ، ويظهر من هيئته أنه من أهل السودان ، فلما اقترب منهم أمسك بزمام الهجين وحياهم ، وعرفوا انه من ضباط اسماعيل باشا فسألوه عن سبب مجيئه وحده في تلك الصحراء فقال : « اني آت من الخرطوم قاصداً الى القاهرة بكتب الى العزيز من ولده اسماعيل باشا » .

فسألوه عن الأحوال فقال : « ان جنودنا ساروا حتى افتتحوا الخرطوم وسنار وخضعت لهم الشائقية ، ثم سار اسماعيل باشا بجنوده حتى أتى جبل فزغل فاكتشف معادن الذهب ، غير أن الوباء فشا في العسكر فاضطر الى العودة ، وقد تركته في منطقة الخرطوم » .

فقال سعيد : « هل وصلت اليكم حملة الأرناءوط والمغاربة التي توجهت مؤخراً لامدادكم ؟ » .

قال : « نعم قد وصلت منذ حين ، وهي الآن اختلطت بجنود اسماعيل باشا لأن كثيراً من رجالها قد قتلوا في الحروب فألحق من بقي منهم بجيش اسماعيل ، وهم قادمون الى جهات شندي لجمع الرجال وجباية الأموال بعد أن تركوا أحمد بك الدفتردار بمن بقي من الجند في سنار » .

وأحب سعيد أن يسأله سؤالاً آخر ، فاعتذر الضابط بعدم امكانه التأخر أكثر من ذلك خوفاً من فوات الوقت ، وودعهم مطلقاً لهجينه العنان واضطرب سعيد من جراء ذلك الخبر ، خوفاً على سيده أن يكون ممن قتلوا ، وبقي سائراً مدة طويلة وهو صامت لا ينطق ببنت شفة ، فأدرك رفاقه ذلك فسألوه عن سبب سكوته فقال : « اني أتأمل في هذه الصحراء الواسعة ، فهي مع خلوها من الماء نشاهد فيها نباتات وأشجاراً كثيرة كأنها في بلاد يرويها ماء النيل » .

فقال أحدهم : « ان هذه الأشجار والأعشاب ترتوي من ماء المطر زمن الشتاء وتبقى في سائر الفصول فترعاها الجمال » .

فسكت سعيد ، وعاودته هواجسه فتخيل سيده تارة مصاباً بطعنة ، وتارة قتيلاً أو أسيراً ، فأسودت الدنيا في عينيه ، وأغرورقتا بالدموع .

وفيما هو في هذه التصورات وقفت القافلة للغداء والاستراحة ، لأن الحر كان قد اشتدت وطأته ولم يعد المسير ممكناً . فوقف سعيد متردداً بين أن يرافق القافلة كل الطريق أو يتركها ويسير على حدة خوفاً من الابطاء ، لأن التجار لا يمكنهم الاسراع في سيرهم وجمالهم مثقلة بالأحمال وهي ليست من الجمال السريعة .

فجلس للاستراحة وتناول الطعام ، ثم شرب جرعة من الماء الذي يحمله معه ، ورأى رفاقه قد توسدوا للقيلولة ، فلم يستطع التوسد مثلهم لشدة قلقه ، وتصور أن تأخره دقيقة واحدة قد يترتب عليه موت سيده ، فهب واقفاً وركب هجينه وودع رفاقه معتذراً بأنه لا يمكنه الابطاء في الطريق مثلهم ، ثم أطلق لهجينه الغنان في الصحراء ومضى لا يلوي على شيء .

ما زال سعيد منطلقاً بهجينه حتى ولى النهار ، فاستراح قليلاً ثم واصل السير في ضوء القمر الى أن شاهد خياماً عن بعد فيها بعض العربان العبابدة ، فاقترب من المحلة فناداه رجل قائلاً بلغة تلك القبيلة : « مين الزول » - أي من الرجل ؟ .

فأجاب سعيد قائلاً : « موحد » أي يشهد ألا إله إلا الله .

فظنوه مسلماً من قبيلتهم فقالوا : « يا هلا بالزول » . أي أهلاً بالرجل .

فتقدم سعيد وسلم عليهم بسلامهم المعتاد ، فسألوه عن قبيلته فقال : « اني من قبيلة الشائقية » .

ولما أراد السفر في الصباح سأله شيخ تلك القبيلة عن جهة مسيره بقوله : « يا زول أنت مبحر والا مقبل » أي هل أنت سائر شمالاً أم جنوباً .

فقال : « لا والله مقبل يا زول » .

فقال له : « تكوس شونو » أي عن أي شيء تبحث .

فقال سعيد : « أكوس سيداً لي مرق مني في الليل الغبر » أي أبحث على سيدي الذي تاه مني في الليل الماضي .

وحذراً من أن يمل القارىء لغة هؤلاء الأقوام ننقل كلام الرجلين الى اللغة العربية السليمة .

قال الشيخ لسعيد : « هل تريد أن أزودك ببعض رجالي يساعدونك في البحث عن سيدك ؟ » .

فقال سعيد : « ان ذلك غاية مرادي ولكنني أخشى أن يكون سيدي قد سار الى أبي حمد أي مسافة ستة أو سبعة أيام من هنا ولا يليق بي أن أتعب رجالك بهذا المقدار » .

فقال الشيخ : « مرحباً بك يا وجه الخير ، فان أسيادك من أصحاب المروءة ، ولا يليق بي أن أتركك ما لم أرسل معك بعض رجالي » .

ثم نادى قائلاً : « تيراب » . فجاء بدوي دقيق البنية حاد العينين أسودهما ، صغير الأنف ، أسود الشعر خفيفه ، صغير الفم والاذن ، منتظم الأسنان أبيضها ، دقيق الساقين . ومع رقة جسمه تلوح عليه مظاهر القوة والنشاط وسرعة الحركة .

فلما وقف بين يدي الشيخ قال له : « سر يا بني مع هذا الرجل لتبحث معه عن سيده ومتى التقيتما به فأوصلهما الى قبيلتهما » .

فقال تيراب : « سمعاً وطاعة » . وركب هجينه ، وسار في ركابه اثنان من العبيد ، ثم سار الجميع جنوباً وقد سر سعيد لمرافقة هذا البدوي له لأنه أصبح في مأمن من أن يضل الطريق ، ولكنه خشي أن يرافقه يوماً ثم يعود ، فأخذ يحتال لابقائه معه الى آخر الطريق فافتتح الحديث قائلاً : « ما هو اسم شيخكم يا تيراب ؟ » .

قال : « اسمه الشيخ أبو سرحان ، وهو أبي ، لكن كيف تاه منك سيدك ؟ » .

فقال سعيد : « ان سيدي هو ابن الأمير ود علي ، وهو شاب يحب الفروسية ، ولما سمع بأن الجنود المصريين قادمون من الخرطوم الى شندي ، أحب أن يذهب للانضمام الى بعض القبائل هناك لينتقم من اسماعيل باشا ، لأنه قتل صديقاً له في بعض المواقع . ولا شك أن هذا القصد ناتج عن قلة التبصر وكثرة الجهالة ، وقد حاول أبوه مراراً اقناعه بالعدول عن ذلك فلم يقتنع ، وخرج صباح أمس دون أن يعلم به أحد ولم يرجع بعد ، فبعثني أبوه للبحث عنه وأنا أظن أنه سار الى أبي حمد قاصداً المتمة » .

فقال تيراب : « اذن خير لنا أن نتوجه تواً الى أبي حمد » .

فقال سعيد : « هذا هو الأنسب على ما أظن » . وكان ذلك غاية منى سعيد فانه أتى بتلك القصة لكي يسمع ذلك الرأي .

ثم مضى الاثنان يجدان المسير والعبدان في ركابهما حتى وصلا بعد ثلاثة أيام الى محطة مرات ، وهي المحطة المتوسطة في ذلك العطمور ، وفيها آبار الماء غير العذب ينزل بها المسافرون للاستقاء وملء القرب لما بقي من الطريق الى أبي حمد . فاستراحوا هناك ريثما أكلوا وشربوا وملأوا قربهم ، ثم استأنفوا رحلتهم .

وبعد بضعة أيام وصلوا الى محلة أبي حمد على الشاطىء الشرقي للنيل آخر ذلك العطمور .

فقال تيراب : « يلوح لي أن ابن سيدك قد ذهب الى المتمة ، لأننا لم نقف له على أثر » .

فقال سعيد : « نعم ، أكبر الظن أنه سار الى هناك ، وإلا كنا التقينا به أو سمعنا شيئاً عنه . وعلى كل حال أرجو الآن أن تعود الى أبيك وتقدم له عني وعن سيدي مزيد الشكر والثناء على معروفه ، ومتى رجعت أنا الى القبيلة فسأخبر سيدي الأمير الكبير بجميل صنعكم » .

وألح سعيد على تيراب في أن يرجع ، خوفاً من انكشاف أمره له اذا وصل معه الى المتمة ، فودعه تيراب وعاد بخادميه الى أبيه ، أما سعيد فانه عبر النيل الى البر الغربي ولم يعد أمامه الى المتمة الا عطمور واحد يجب أن يسير فيه مدة قدر ما سار في عطمور أبي حمد ، غير ان الماء هنا موجود في آبار على الطريق اكثر مما في ذاك.

■

ملأ سعيد قربتيه من ماء النيل، ثم نكت هجينه قاصداً المتمه.

وبعد مسيرة بضعة أيام وصل الى آبار جكدول في منتصف ذلك الطريق ، فاذا هو مكان جبلي تجمعت فيه مياه غزيرة من الأمطار ، فشرب وسقى جمله وملأ قربتيه ، وبات هناك ليلة ثم سار في الصباح فمر بآبار أبي طليح بعد يومين ، وفي اليوم الثالث أشرف على المتمة ، وهي بلدة واقعة على ضفة النيل الغربية مقابل بلدة شندي ، وكانت هذه أكثر عمراناً من تلك ، وبينهما مجرى النيل .

فلما وصل الى المدينة دخلها كأنه واحد من أهلها ، وكان ذلك اليوم يوم الثلاثاء وهو يوم سوق المتمة ، فوجد الناس مجتمعين في ساحة هناك يبيعون ويشترون ، وفيهم الجزارون قد علقوا بقرة أو جملاً مذبوحتين في شجرة وراحوا يبيعون من لحمها لمن يشاء بغيروزن ، وفيهم باعة التبغ السوداني واللبن والزيت والتمر وسائر لوازم البيوت .

والعادة في تلك البلاد أنهم يجعلون لكل بلدة يومين في كل أسبوع يقيمون فيها سوقاً عامة يأتي اليها أهل البلدة وما جاورها من القرى يبيعون ويشترون ويتقايضون . وكانت سوق المتمة في يومي الثلاثاء والجمعة . فالراعي يعطي الفلاح غنماً أو تبغاً ، والحائك يبادل بمنسوجاته مع التاجر االقادم من المدن بالسكر والقهوة والأرز وما شاكل ذلك .

وليست فائدة تلك السوق مقصورة على التجارة فقط ، ولكنها كذلك وسيلة للمخابرة والمداولة فيما هو جار من الحوادث ، فهم يغتنمون الفرصة في أيام السوق لمطالعة الأخبار .

فدخل سعيد بينهم على أنه من أهل القرى المجاورة ، ودخل معهم في الأحاديث فسأل عن حالة الجند المصريين فقيل له : « أنهم دوخوا البلاد وعما قليل يصلون الى شندي لجباية

الأموال » .

وفي اليوم الثاني قيل له : « انهم على مقربة من شندي . وفي عصر ذلك اليوم وصل اسماعيل باشا ورجاله الى شندي فنصبوا خيامهم ونزل اسماعيل في قصر أعد لنزوله بالقرب من شجرة كبيرة خارج البلدة ، فجاء الناس للعساكر بما يحتاجون اليه من المأكل والمشرب ، وجاء كثيرون من أهالي المتمة الى شندي لمشاهدة العساكر المصريين ، فنزل سعيد في أحد القوارب حتى أتى معسكر اسماعيل وجعل ينظر يميناً وشمالاً ويتأمل في وجوه ضباطه وعساكره لعله يجد سيده بينهم ، لكنه خشي أن يرتابوا في أمره ، فجاء بطبق جعل فيه بيضاً وتمراً ومضى بين الخيام متظاهراً بأنه أحد الباعة .

وفيما هو في ذلك سمع لغط الناس ، ثم رأى الملك النمر ملك شندي من قبيلة الشائقية قد جاء برجاله لملاقاة اسماعيل باشا ، وأخذ الناس يهرعون ليشاهدوا تلك المقابلة ، فسار سعيد في جملتهم . وكان اسماعيل في لباسه العسكري وطربوشه التونسي وسراويل الأتراك ، متكئاً خارج القصر على مقعد سوداني (عنقريب) فوقه بساط عجمي ، وفي يده غليون يدخن فيه ، وحوله ضباطه ورجال معيته بين جالس وواقف .

ثم أقبل الملك النمر فاذا به شيخ متوسط القامة ، خفيف شعر اللحية ، أسمر اللون ، كبير العينين حادهما ، عليه القفطان الحريري وفوقه العباءة البيضاء ، وعلى رأسه العمامة ، وبيده الغليون ، وفي خدمته بضعة رجال واحد يحمل له سلاحه من رمح وسيف وحراب ، وآخر ينقل له الغليون والتبغ ، وهكذا .

ولما اقترب من معسكر اسماعيل اعطى غليونه لخادمه ، وأمر رجاله أن يلبثوا بعيدين ، ثم تقدم هو احتراماً للباشا ، فلما دنا منه حياه بالتحية المعتادة حانياً رأسه ولمس يد الباشا وقبلها ، ثم وقف منتصباً ، كل ذلك واسماعيل متكىء والغليون في يده لا يبدي حراكاً احتقاراً له ، وبعد مدة أشار اليه فجلس على الأرض . ثم أخذ الملك يرحب باسماعيل ويبدي له الخضوع وهو لا يزداد إلا احتقاراً له ، ثم التفت اليه قائلاً له : « اني جئت اليك لجباية الأموال الأميرية وجمع الرجال ، فيجب عليك أن تأتيني بما يملأ قاربي هذا من الفضة ، وتجمع لي الفين من الرجال خلال خمسة أيام » .

فوقف الرجل النمر مسترحماً وقال : «حيى الله الباشا ، من أين لنا هذا القدر من الفضة ونحن قوم مساكين فقراء ؟ » .

فاستوى اسماعيل على متكئه ونظر الى الملك النمر عابساً وقال : « لقد أبلغتك أمري فلا تجادلني » .

فكرر الملك النمر اعتذاره بأنه لا قبل له بجمع هذا المبلغ ، فقال اسماعيل باشا :

« حسنأنجعله عشرين الف ريال » .

فشكا الملك النمر من قصر المدة ذاكراً انها لا تكفي لجمع المطلوب من المال والرجال فقذفه اسماعيل بأنبوبة غليونه في وجهه ، فاستشاط الملك النمر غيظاً ولكنه أظهر الخضوع وأضمر الشر .

أما سعيد فلم يكن هذا المشهد ليشغله عن سيده ، لكنه لم يكن يستطيع التقدم لمجلس الباشا حيث يجتمع ضباطه ليبحث عن سيده بينهم ، لأن العساكر كانوا يمنعون الناس من الاقتراب الى مجلس الباشا ، فلما رجع الملك النمر الى المدينة كانت الشمس قد مالت الى الغروب فخاف سعيد ألا يسمح لأحد من أهل المدينة بالبقاء في المعسكر فعاد الى شندي في معية الملك النمر ، ولم يكن أحد يعرف حقيقته مطلقاً ، بل كان الجميع يخاطبونه ويحدثونه على أنه من أهل القرى المجاورة ، وقد عزم أن يبكر في الصباح لاستطلاع أمر سيده في معسكر اسماعيل باشا .

□

ما كاد الملك النمر يصل الى بيته حتى جمع اليه بعض رجاله وأخذ يتباحث معهم وعيناه تقدحان الشرر من شدة الغيظ ، فدخل سعيد متنكراً فوجده قد وقف بينهم وخاطبهم قائلاً : « يا معشر الشائقية ، ها قد رأيتم ما أصاب ملككم النمر في هذا اليوم من الاهانة بغيرّ ذنب ، وأنتم تعلمون ان الاهانة لا تطاق ، فهل تحالفونني اذا أردت الانتقام من الذي أهانني ؟ » .

فأجابه الجميع : « لا » . فسكت ، ثم أشار الى بعض خاصته فتبعوه الى حجرة أغلقوها دونهم وأخذوا في تدبير وسيلة للانتقام .

واعتزم سعيد أن يذهب في الصباح التالي الى اسماعيل باشا ليحذره من الملك النمر وذهب يطلب مكاناً يبيت فيه تلك الليلة .

وفيما هو سائر رأى الناس حاملين أكياساً من التبن الى معسكر اسماعيل باشا ، فظنه علفاً للجمال فلم يبال ، ثم رأى الناس يتقاطرون نحو المعسكر فقال في نفسه : « يحسن أن أذهب معهم لعلي أقف على أثر لسيدي » . فسار حتى وصل الى المعسكر فاذا بالملك النمر والباشا وضباطه قد جلسوا في بقعة وسط المعسكر يتمازحون ويضحكون ، وأمامهم حلقة من الرجال السودانيين ينقرون بالدفوف ويرقصون الرقصة السودانية ، وقد أدار الملك النمر ضرباً من الشراب يكثر تعاطيه في السودان يقال له « المريسة » ويسميه أهل مصر (البوظة) . وهو يصنع من منقوع الذرة ويشبه بطعمه وخواصه الجعة (البيرة) .

وظل الملك النمر يعطي اسماعيل باشا وأهل مجلسه وهم يشربون حتى مضى معظم الليل ، كل ذلك وسعيد شاخص ينظر الى الناس ويتأمل في وجوههم فوقع نظره على رجل مقطب الوجه جالس في مجلس الباشا لم يكن يشرب من ذلك الشراب ولا يكترث لتلك الألعاب خلافاً لرفاقه فانهم كانوا يقهقهون ويصرخون وكذلك الباشا .

فتأمل سعيد في ذلك الوجه فاذا عليه ملامح الكبر ، أكثر مما يعهده في سيده ، وهو مطرق في الأرض وبيده غليون ويدخن فيه وينفخ متأففاً ، ثم خطر ببال سعيد ما علمه من الأمير بشير من أن سيده شاب قبل الأوان ، فترجح عنده أن ذلك الضابط المطرق هو سيده ، فكاد يطير من الفرح ، وهم بأن يناديه من بين الجماهير ولكنه أمسك خوفاً من أن يقع عليه غضب اسماعيل باشا ، اذ لم يكن قد نسي ما أصاب الملك النمر من الاهانة على يده في النهار .

ولكن عواطفه لم تطاوعه فصار يرقص فرحاً ، والناظر اليه يظنه يرقص مع الراقصين ، فأخذوا يضحكون عليه ، ثم دخل في زمرة الراقصين لكي يقترب من سيده ، فأخذ يتقرب شيئاً فشيئاً وجميع من كان في مجلس الباشا يترنحون ، وقد لعبت برؤ وسهم الخمر فصاروا يرقصون أيضاً .

أما سيده فكان لا يزال مطرقاً عابساً لا يبدي حراكاً إلا بالتدخين وكلما فرغ غليونه زوده بتبغ جديد . ثم رآه سعيد وقد نهض ودار من وراء مقعد اسماعيل ، فظن أنه ذاهب في حاجة ولا يلبث قليلاً حتى يعود ، ولم يكن يمكنه الوصول اليه لتوسط مقعد الباشا وحاشيته بينهما ، فتربص في انتظار عودته ، فطال انتظاره حتى آخر الليل دون أن يعود سيده . وكان اسماعيل باشا ورجاله قد تعبوا فانصرف كل منهم الى محل رقاده ، وسار اسماعيل الى قصره كل ذلك وسعيد يبحث هنا وهناك عن سيده وفيما هو كذلك رأى اللهب يتقد والدخان يتصاعد من جهة قصر اسماعيل وما جاوره من الخيام ، فأدرك أن النار اشتعلت في التبن الذي كانوا قد جمعوه في مساء ذلك اليوم ، ولم يكن سعيد قد فطن الى المكيدة إلا في هذه اللحظة ، فخاف على سيده أن يذهب فريسة النار ، وسارع الى مكان اللهب يبحث عنه ، ولما لم يجده جعل يطوف كالمجنون وينادي بعبارات مختلفة يقولها على غير هدى . وكان يرى بعينيه اشتعال اللهب من جهة وسيوف الشائقية وحرابهم من جهة أخرى وهي تعمل في رجال اسماعيل ، فسار نحو النيران وقد شهر السيف في يده ايهاماً لرجال الملك النمر أنه منهم . وفيما هو بقرب اللهب رأى سيده خارجاً من خيمته مسرعاً نحو النار كأنه يريد أن يلقي بنفسه عليها تخلصاً من الحياة ، فناداه سعيد : «قف يا سيدي لا تقتل نفسك ان سيدتي سلمى حية» . وكان أمين بك قد عاين سعيداً هاجماً عليه في زي السودانيين فظنه منهم فضربه ضربة بالسيف على عنقه فسقط .

لا يبدي حراكاً وسمعه يقول : « قتلتني يا سيدي أنا عبدك سعيد » .

فأراد العودة اليه لتحقق الأمر فاذا بجماعة كبيرة هاجمون عليه بالحراب والسيوف والبنادق وكانت الحياة قد عزت عليه لما سمع ببقاء امرأته في عداد الأحياء فخاف اذا ثبت أمام الهاجمين أن تعود العائدة عليه فلا يعود الى امرأته فطلب الفرار في عرض الصحراء حتى وصل الى مأمن ، فجلس يفكر فيما سمعه ورآه ، وهو يحسبه أضغاث أحلام ، وندم على فراره بغير أن يتحقق حال سعيد فحدثته نفسه أن يعود الى مكان الوقعة لعله يستطلع شيئاً من أخباره ، لكنه رأى في رجوعه خطراً عليه وهو مع ذلك لا يأمل أن يستفيد شيئاً لأن ضربته كانت قاتلة وتذكر أن سعيداً قال له : « قتلتني يا سيدي » . فتأسف كثيراً ولكنه عاد فتذكر أن سعيداً لم يقل له أين هي امرأته فازداد أسفاً . ولما يئس من أمر سعيد هام على وجهه ليبحث عن زوجته .

حصار عكا

يئست سلمى أو (جميلة) من وجود زوجها ، بعد أن مرت عليها سبع سنوات لم تسمع خلالها عنه أي خبر ، فزال من ذهنهاأمل الاجتماع به .

وكان غريب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وسافر مع الأمير بشير مرات ، وحضر كثيراً من الوقائع الحربية أظهر فيها بسالة عظيمة حتى أجمع الجميع على محبته . فكان ذلك أكبر تعزية لوالدته .

ثم رأت أن تزوجه ، فاختارت له فتاة بارعة الجمال كاملة الصفات من العشيرة الشهابية ، ورأت أن تستطلع رأيه . ففي ليلة من ليالي شهر تشرين الأول (نوفمبر) سنة ١٨٣١ دعته الى حجرتها ، وأسرت اليه بما اعتزمته ، وامتدحت تلك الفتاة ما استطاعت ، فقال لها : « اني أحب كل ما تحبينه ، ومع اني لا أعرف تلك الفتاة فأنا واثق بأنها ستكون موافقة لي ، ولكنني أرى أن هذا الوقت ليس وقت زواج » .

فقالت : « وما المانع ؟ » . فقال : « ان أبي الآن (يقصد الأمير بشيراً) مشغول باضطراب سياسي ، فلا ينبغي مفاتحته في مثل هذا الأمر الآن ، وعلينا ارجاؤه الى فرصة أخرى » .

فقالت سلمى : « كيف ذلك يا ولدي ، وما الداعي لاضطراب الأمير ، اخبرني » .

فقال : « أنت تعلمين أن امارة أبي على لبنان تابعة ولاية عبد الله باشا والي عكا ، ولا يخفى عليك ان أبي لما توجه في المرة الماضية الى مصر كنت أنا برفقته كان غرضه من ذلك توسيط عزيز مصر في التماس العفو من مولانا السلطان عن عبد الله باشا المذكور ، وقد ظفر له بذلك العفو وعادت ولاية عكا اليه بعد أن كادت تخرج من يده . ولكنه بدلاً من أن يحفظ هذا المعروف لأبي ومحمد علي باشا تنكر لهما ، فأصبح أبي ناقماً عليه ولكنه لا يستطيع اظهار ذلك لأنه تحت ولايته . أما محمد علي باشا والي مصر فلم يمكنه امساك غضبه لأسباب أوجبت زيادة حقده عليه ، فبعث ابنه ابراهيم باشا في حملة من الرجال لافتتاح عكا وقهر عبد الله باشا . وقد كتب هذا الى أبي يطلب اليه أن يحشد الرجال ويأتي لنجدته في عكا ، وأنت تعلمين أنه لا يمكنه مخالفة الأوامر ، فبعث أبي الى جميع المقاطعات لجمع الرجال والتأهب

للسفر . وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من ابراهيم باشا من عكا يستقدمه اليه فوقع أبي في حيرة ، ولم يمكنه اجابة طلب ابراهيم باشا خوفاً من غضب عبد الله باشا ، في حين أنه وعد من قبل بمساعدة ابراهيم باشا عند قدومه الى البلاد السورية ، ولذلك ترينه في قلق وتردد ، لا يمكن معهما مخاطبته في شأن الزواج الآن » .

فاضطربت جميلة لذلك الخبر وقالت : « وماذا ترى الأمير صانعاً في هذه المشكلة ؟ » .

فقال : « أرجح أنه يجيب طلب ابراهيم باشا ، وقد يسافر غداً ومعه حاشيته الى عكا لهذا الغرض ، ولا بد لي طبعاً من التوجه برفقته » .

فصاحت قائلة : « لا يا ولدي ، ما لك ولهذه المخاطرة ؟ » .

فقاطعها غريب قائلاً : « لا تجزعي يا والدتي ، واذا كنت لم أعهد فيك مثل هذا الخوف علي وأنا صبي ناشيء ، فأولى لك الآن ألا تجزعي لسفري وقد صرت رجلاً » .

فقالت : « ان ذهابك الى مصر اول مرة لم يكن للحرب ، وقد كفاني ما قاسيت على أثر ذلك السفر » . قالت ذلك ولم تقدر أن تمسك نفسها عن البكاء لتذكرها حكاية زوجها .

فتعجب غريب لذلك البكاء وقال : « ما الداعي يا والدتي الى هذا البكاء الآن ؟ » .

قالت : « ليس هناك داعٍ يا حبيبي سوى اني تذكرت الخطر الذي وقعت فيه هناك بسبب اعتداء اللصوص عليكَ » .

ثم رأت أنها يجب ألا تظهر الجزع أمامه ، فندمت على مّا فرط منها وقالت : « لا تظن اني أخاف عليك من الحرب ، فان الرجال خلقوا لها ، والأعمار بيد الله ، وأنا لا أخاف عليك من الحرب ولا سيما انك ذاهب في جماعة من الأبطال وفيهم أبوك البطل المغوار الذي تهابه الأسود ، فاذا لم يكن بد من السفر ففي حراسة الله ، ولكني أوصيك وصية واحدة أرجو ألا تنساها » .

قال غريب : « مريني بما شئت فأنا طوع أمرك » .

قالت : « عليك يا ولدي بتقوى الله والاتكال عليه في السراء والضراء » .

ثم أخرجت بطاقة صغيرة كتبت فيها بضع كلمات ، وطوتها ودفعتها اليه قائلة : « هذه البطاقة كتبت لك فيها آية ذهبية ، ولا تفتحها إلا وأنت في أشد الضيق » .

فقبل البطاقة ووضعها في جيبه وقد أغرورقت عيناه بالدموع ، ثم تجلد وأمسك نفسه حتى لا يبدو عليه الجزع فيؤثر ذلك في نفس والدته .

وفي صباح الغد أمر الأمير بشير بالاستعداد للسفر وبأن يكون غريب في جملة المسافرين لأنه كان يحبه حباً عظيمًا لما رأى فيه من النخوة والشهامة والهمة والشجاعة ، فذهب الى والدته ليودعها فقبلته وشجعته ولكن قلبها كاد يقطر دماً على فراقه .

ثم ركب الجميع وساروا قاصدين عكا ، وفيما هم في الطريق لقيهم فارس بيده كتاب الى الأمير ، ففضه فاذا به من عزيز مصر اليه يتهدده ويتوعده بالانتقام ان لم يسارع الى عكا لمعاضدة ولده ابراهيم ، ومما جاء في هذا الكتاب : « ان ولدي ابراهيم كتب الي أنه دعاكم الى صحراء عكا ولم تحضروا ، فاما أن تفعلوا وإلا فاننا نخرب مساكنكم ونغرس في مكانها زيتوناً » .

فطوى الأمير الكتاب وما زال سائراً حتى أتى صحراء عكا شمالي حيفا وجبل الكرمل حيث عسكر ابراهيم باشا ، فخرج لملاقاته بعض الضباط والجنود وحيوه بالموسيقى واطلاق البارود ، ومن بينهم : مصطفى بربر ، وحنا البحري رئيس الكتبة ثم دخلوا به المعسكر في موكب عظيم ، وكان ذلك المعسكر هو الذي نزل به بونابرت قبل ذلك بنحو ثلاث وثلاثين سنة ، فنزل الأمير ومن معه في خيمة خاصة قرب خيمة ابراهيم باشا .

□

كانت عكا محصنة تحصيناً منيعاً ، وقد دافع جندها دفاعاً شديداً حتى امتنعت على ابراهيم باشا أكثر من خمسة أشهر كانت الحرب في أثنائها سجالاً بين الفريقين .

وكان غريب يغتنم فرص الهدنة ويذهب للصيد في جوار تلك الأماكن ، وكان في بعض الأحيان يصل الى سهول (شفا عمر) فيصطاد من غزلانها وحجلانها ما شاء .

وكان جنود ابراهيم باشا مدربين على النظام الحديث الذي وضعه بونابرت ، وبينهم كثير من الأتراك والأرناءوط والمغاربة ، من الجنود القدماء . وكان الضباط يخرجون في أوقات الهدنة للصيد والنزهة .

ففي صباح يوم من أيام شهر ديسمبر سنة ١٨٣١ خرج غريب من خيمة الأمير بشير مبكراً ، وكان البرد قارساً فالتف بثيابه وصعد الى مكان عال وأخذ يتأمل الصحراء عند سفح ذلك الجبل ، وقد أصبحت بعد أن تساقطت عليها الأمطار في الليل كأنها مغسولة ، فصحا الجو وصفت السماء وأشرقت الشمس على تلك الأنحاء فانعكست أشعتها على سطح البحر المتوسط فتلون سطحه ألواناً بديعة . ولم يكن يتخلل السكون السائد إلا زقزقة الطيور وقد خرجت من أعشاشها فيجيبها البحر بتلاطم الأمواج .

فسر غريب بذلك المنظر كثيراً ، واشتاقت نفسه الى الركوب والطواف في تلك الجهات المجاورة ـ والركوب يحلو في الصحراء الرملية ، اذ يبدو الرمل أجمل ما يكون بعد المطر ـ فركب جواده ومضى به دون أن يخبر أحداً بذلك . على أن بعض الجند رأوه وعرفوه . فلما

خرج من المعسكر أوغل في تلك الصحراء شرقاً كأنه يريد أن يركض الفرس فعرج شمالاً ازاء باب عكا وأخذ يتأمل أسوار تلك المدينة أو القلعة وحصونها وخنادقها . ثم رأى امامه آثار قناطر قديمة كان الماء يجري فيها الى عكا من مكان يبعد مسيرة أربع ساعات . وفيما هو في ذلك عرج به جواده نحو المدينة وهو لا يدري فما أحس إلا وهو بالقرب من بابها الشرقي ولم ينتبه إلا عندما سمع اطلاق الرصاص عليه ، فأدار شكيمة جواده وطلب الصحراء تخلصاً من الموت ، لكنه لم يلبث قليلاً حتى أصيب جواده برصاصة أوقعته صريعاً ، فأراد الفرار على قدميه ، ولكن بعض حراس عكا خرجوا اليه بأسلحتهم فأدركوه قبل أن يتمكن من اخراج رجله من الركاب ، وأراد الدفاع فلم يستطع الى ذلك سبيلاً ، فقبضوا عليه وساقوه الى المدينة فأدخلوه من ذلك الباب وهو كأنه في حلم ، فدخل معهم وهو فيما تقدم ذكره من اللباس الفاخر ، وقد أرسل كوفيته على كتفيه ، وجمدانه المزركش بالقصب يسطع فوق قبائه الحريري صنع دمشق وقد تقلد السيف وتمنطق بالطنبجات والخنجر ، ومشيته تدل على أنه ليس من عامة الناس .

وكان أهل عكا ينظرون الى الشاب الأسير نظرة التعجب ويتساءلون فيما بينهم عمن عسى أن يكون . أما هو فبقي ماشياً غير مبالٍ كأنما هو ذاهب الى بيته حتى أتوا به الى القلعة ودخلوا به على عبد الله باشا ، فاذا هو جالس على مقعد يدخن الشبق وهو مقطب الوجه ، وكان ربعة أشمط الشعر عريض اللحية ، وعلى رأسه الطربوش العثماني . وبين يديه رجال دولته ، ويظهر من وجهه أنه في حال ارتباك واضطراب وغضب شديد .

فلما دخل غريب الغرفة عرفه عبد الله فناداه منتهراً : « ألست ابن الأمير بشير خائن الدولة والأمة ؟ » .

فقال غريب : « نعم انني ابنه ، ولكنني لا أرى مسوغاً لما وصفته به يا سعادة الوالي ، ولعلك اذا التقيت بأبي يوماً تعرف حقيقة الأمر » .

فقال عبد الله باشا : « لقد بعثت اليه لكي يقدم الي برجاله فانحاز الى عدونا ، فاذا ظفرت به فلأعلمنه الطاعة والأمانة ، وستبقى أنت عندنا رهناً حتى يقضي الله بيننا » .

فقال غريب : « لا داعي للتهديد والوعيد ، وان ما نسبته الى والدي يعد اجحافاً منك بحقه ، فانه لم يقصر في خدمة مصلحتك . ألم يكن هو الذي أنقذك من غضب الدولة ، وكم ساعدك في اخضاع رعيتك ؟ أما انحيازه الآن الى الجنود المصريين فلعل له عذراً يعلمه ولا أعلمه » .

فقاطعه عبد الله باشا قائلاً : « لا عذر له في خيانة دولته ، وقد ذكرت لك أني سأعلمه الأمانة ان ظفرت به ، وما أنا بناقم على ابراهيم بقدر نقمتي عليه ، فما هكذا تكون الأمانة

والشهامة » .

فقال غريب : « ليسمح لي سعادة الوالي أن أرد على هذا الاتهام لأبرىء أبي منه . على أني موقن بأنكما اذا اجتمعتما وتفاوضتما ، فستعلم أن الخيانة ليست من طبع الأمير بشير » .

فابتدره الباشا منتهراً وهو يهم بالوقوف ، ثم نادى :« سالم أغا » . فلما جاء قال له : « خذ هذا الى السجن مغلولاً » . فتقدم سالم أغا وهو بملابس الضباط ، طويل القامة جميل المنظر في نحو الثلاثين من عمره أزرق العينين أشقر الشعر ، وفي يده سيف مسلول وبجانبه جنديان بالبنادق ، وأشار الى غريب أن يمشي فامتنع غريب والتفت الى الوالي قائلاً وهو ينتفض من شدة التأثر : « أهكذا تكبلون أبناء الأمراء وتقودونهم الى السجن مهانين ؟ اني لا أنتقل من هنا حتى تفك أغلالي فأسير بنفسي الى حيث تشاءون » .

فصاح عبد الله باشا بأعلى صوته : « يا للجرأة ، أتعارض أمري وتمتنع عن الذهاب ، خذوه حالاً من أمامي وإلا قطعت رأسه بهذا السيف » .

فتقدم غريب دون أن يرتعد أو يؤثر فيه كلام الوالي وقال : « أتظن أنك تروعني بهذا التهديد ؟ وهل نسيت قول القائل :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

« لا يا سيدي ، لا أبالي بالتهديد والوعيد ما دمت بريئاً ، ولكن من العار عليك أن تجرد علي سيفاً وأنا أعزل مكبل ، فاذا شئت أن تجرب نفسك ففك أغلالي وليحكم الله بيننا بالقسط ولا تستنكف من ذلك فانك تبارز أميراً » .

فعجب الجميع لجرأة غريب وأعجبتهم جرأته حتى أنهم خافوا عليه غضب الباشا وأشفقوا أن يأمر بقتله حالاً ولا سيما الضابط الذي كان قد تقدم ليسوقه الى السجن ، فتقدم وأمسكه بذراعه وضغط باصبعه عليه كأنه يقول له : « أقصر من هذا الحديث فذلك خير لك» .

أما الوالي فاشتد غضبه وهم بضرب غريب لكنه رأى الضابط قد ساقه الى السجن فسكت ، ولو أنه أطاع غضبه واتبع هوى نفسه لما أبقى على غريب ، لكنه كان شاعراً بضعفه عن مقاومة الجنود المصريين ، عالماً أن الدائرة ستدور عليه ، وكان قد طلب قبل ذلك المفاوضة في أمر الصلح فجاءته أوامر من الاستانة تشدد عزيمته فأمسك عن المفاوضة في انتظار النجدة ، وهو فيما بينه وبين نفسه يعلم أنه لا يقوى على مقاومة أولئك الجنود الذين دوخوا الأقطار السودانية والغربية والرومية ، بفضل ما هم عليه من النظام الحديث فخاف اذا قتل غريباً أن يثير غضب الأمير بشير فاذا وقع في يده فلا شيء ينقذه من القتل ، ولذلك أمسك نفسه وترك غريباً يساق الى السجن .

ومضى الضابط رئيس الشرطة بغريب الى سجن عكا ، وهو سجن مظلم يوصل اليه ببضع درجات تحت الأرض . وفيما هم في الطريق أخذ غريب يفكر في هذا الاتفاق الغريب الذي جر عليه البلاء العظيم ، فأظلمت الدنيا في عينيه ولا سيما حينما تذكر والدته وما يكون من حزنها عليه اذا أصابه سوء ، ثم طرق ذهنه ما أوصته به عند وداعه وتذكر تلك البطاقة التي أعطته إياها وأوصته أن يقرأها في وقت الشدة والضنك ، فمد يده الى جيبه وكان قد حل وثاقه وأخرج تلك البطاقة فقبلها وفتحها والحراس ينظرون اليه ثم قرأها فاذا هي هذه الكلمة الذهبية : «ثق بالله ولا تبال» . فاطمأن قلبه وانبسط وجهه كأنه كان في شدة ونجا منها . وقد لاحظ ذلك سالم أغا رئيس الشرطة لأنه كان بجانبه فحدثته نفسه أن يسأل غريباً عما في تلك البطاقة ، وكان قد أحبه ومال اليه منذ رآه ، ومن ثم لم يمل طرفه عنه ، فتقدم الى غريب قائلاً : « ما هذه الورقة التي فتحتها ؟ » .

قال : « هي ورقة لا فائدة لك فيها » .

فقال : « نعم أعلم ذلك ، وانما أريد أن أطلع عليها » .

فقال غريب : « ليس فيها شيء يوجب الكتمان ، لكنها مقدسة عندي لأنها من أعز الناس الي » .

فضحك الأغا وقال : « لعلها رسالة من حبيبتك ؟ » .

فخجل غريب وقال : « كلا ، وانما هي من والدتي » .

فأراد الأغا أن يعيد السؤال ، ولكنهم كانوا قد وصلوا الى السجن ، فأدخل غريباً فيه ، وصرف من كانوا معه من الشرطة ، ثم دخل السجن معه لكي يعد له مكاناً يمكث فيه .

أما غريب فاستعظم الدخول الى ذلك المكان المظلم ، وكاد الشرر يطير من عينيه ، ولم يكن معه إلا الأغا فسار به الى حجرة مضيئة ليس فيها أحد وأجلسه على حصير هناك وجلس بجانبه ، فتعجب للطف الأغا وخشي أن يكون هذا منه من قبيل المكر والدهاء لكي يقتله ، فصار ينظر اليه نظر الحذر ، فلم يجد في ملامح وجهه ما يدل على الغدر أو الخيانة .

ثم اقترب الأغا من غريب وهمس اليه قائلاً : « ألا تطلعني على تلك البطاقة ؟ » .

فقال غريب : « وما شأنك بها ؟ » .

قال : « لا غرض لي سوى الاطلاع على نصائح الوالدين » .

فأعطاه البطاقة فلما قرأها وقف شعر رأسه من التأثر وقال : « الحق ان هذه الوالدة لجوهرة ثمينة ، ولا غرو وأنت ثمرة تربيتها » .

فحمل غريب ذلك اللطف والدعة على الخديعة ، لأنه قلما ظهر بين رجال والي عكا أناس لهم مثل هذه العواطف الشريفة .

ثم قال الأغا لغريب : « قد آن وقت الغداء ، ولعلك في حاجة الى طعام ؟ » .
فقال غريب : « ان نفسي لا تطلب طعاماً ولا شراباً » .
فأخذ سالم أغا يخفف عنه يعزيه الى أن قال له : « يلوح لي أنك لم تقاس عذاب السجون أيها الأمير ، فكل واشرب واهنأ ، وعسى أن يمن الله بالفرج من الآن حتى المساء » .
فلاح لغريب أن الرجل يقصد مساعدته ، فهدأ روعه وأكل قليلاً من الطعام ، لكنه عاد فتذكر والدته فانقبضت نفسه ، ولاحظ سالم أغا تغيره فقال له : « ما بال سيدي الأمير تغيرت هيئته ؟ » .
فقال غريب : « لا تظن يا أخي اني خائف من الموت ، فلا ورأس أبي ما أهمني ذلك ، ولكني تذكرت والدتي ، وهي اذا علمت بسوء أصابني لا تعيش ساعة من بعدي ، واذا كنت أحب الحياة فمن أجلها » .
فتبسم سالم أغا قائلاً : « طب نفساً يا عزيزي فاني عون لك على النجاة من هذا الضيق » .
فقال غريب : « وكيف يمكنك ذلك وقد أمرت أن تحافظ علي في السجن ؟ » .
فقال : « هذا لا يهم ، والله يفعل ما يشاء » .
فقال غريب : « اذا كان في نجاتي ما يتعارض مع مصلحتك فاني أفضل الموت على أن أسبب لك ضرراً » .

فعجب الآغا لهذه العواطف الشريفة وازدادت محبته له وهم به وقبل عارضيه وقال : « لا يا سيدي ، ان مساعدتك لا تعد خيانة ، لأني أكون قد أنقذت بريئاً من يد ظالم ، وأنت تعلم أن عبد الله باشا رجل مستبد غشوم لا يعرف الصداقة ، وهو رئيسي حقاً ، ولكنني رأيت منه أموراً أوجبت نفوري منه وميلي الى الجنود المصريين » .
فقال غريب : « يا للعجب ! . . ألا تكون بذلك قد خرجت عن طاعة مولاك وخنت وطنك ؟ » .
فضحك سالم آغا وقال : « لا يا سيدي لأن عبد الله باشا ليس مولاي ، ولا أنا من أهل عكا أو سوريا ، وانما هي المقادير ساقتني الى هنا ، وسأقص عليك قصتي في فرصة أخرى ان شاء الله » .
ثم قال غريب : « والآن ماذا نفعل ؟ » .
فقال الأغا : « أنا أتعهد لك بالخروج من هذا السجن في هذا الليل بكل أمان الى معسكر أبيك ، ولكنني أريد منك أن تؤمنني على حياتي أمام ابراهيم باشا ، ولا بد لي قبل كل

شيء من أن تعاهدني على الصداقة فنكون أخوين متحالفين ، فأتعهد باخراجك من هذا السجن وأنت تتعهد بحفظ حياتي عند وصولنا الى معسكركم . والآن سأخرج من هذا السجن لأهيء ما يلزم ، ثم آتيك بعد الغروب » .

قال : « حسناً » .

فخرج ا آغا وبقي غريب وحده يتأمل كلام سالم آغا ، وهو لا يزال في ريب مما قاله . ثم أخذ يتأمل ذلك السجن المخيف ، وما لبث سالم آغا حتى رجع فرأى غريباً في انتظاره ذاهب الصبر ، فقال له : « قد أعددت كل ما يلزم للفرار فهيا » .

فقال : « يسوءني وايم الحق أن أخرج من هذا المكان فراراً ، ولكن ما الحيلة . . » .

ثم سار سالم أغا ممسكاً بيد غريب ، وهو يلتمس الطريق في الظلام حتى وصل الى باب مغلق ففتحه ودخل به الى حجرة في أحد جدرانها طاقة عليها قضبان من الحديد ، فقال لغريب : « قف هنا قليلاً » . ثم جاء بسلم من احدى زوايا الغرفة وصعد به الى تلك النافذة وما زال يعالج قضبانها بأداة في يده حتى قطع قضيبين منها ، فصار في الامكان خروج الانسان ، ثم ربط القضيبين بحبلين ودلاهما من الطاقة حتى نهاية الحبلين ، فأثبتها في القضبان الباقية وقال : « اصعد يا سيدي على هذا السلم » . فصعد غريب وأطل من الطاقة ، فاذا هي تشرف على البحر والأمواج تلطم جدران السجن وتدوي في هدوء ذلك الليل ، وقال له سالم : « لا تضع الوقت ، أنزل رجليك من النافذة أولا ، وانزل ممسكاً بالحبل ولا تخف ، وسنجد قارباً ينتظرنا فنمضي فيه بسلام » .

فأخرج غريب نفسه من النافذة مبتدئاً برجليه جاعلاً صدره لجهة الحائط فلما قرب من انزال يديه فطن الى الخطر المحدق به فيما اذا انقطع به الحبل وسقط في الماء ، ولا سيما أنه لم يكن يحسن السباحة ، لكنه تجلد وتشجع فأمسك بالحبلين معاً ونظر الى أسفل الحائط فاذا بقارب فيه اثنان من البحارة وكأنهما يشيران اليه بالنزول فأخذ يتدلى حتى وصل الى القارب ، وبعد قليل لحق به سالم ، فلما صار الاثنان في القارب انطلق به البحارة في هدوء حتى داروا من وراء سور المدينة وبعدوا من الخطر فدنوا من الشاطىء ونزلوا ، واذا بجوادين ينتظران هناك كان سالم آغا قد أعدهما ، فأشار الى غريب أن يركب أحدهما ، ثم ركب هو الجواد الآخر ، وانطلقا حتى وصلا الى معسكر ابراهيم باشا .

□

لم يكن الأمير بشير قد علم بخروج غريب صباح ذلك اليوم ، فلما جاء وقت الغداء ولم يحضر ، سأل عنه فقيل له : « ان بعض الجند رأوه خارجاً على جواده في ساعة مبكرة من

الصباح » . فلج في السؤال عنه فلم يقف له على أثر ، ثم بث رجاله يبحثون عنه في الصحراء فعادوا دون فائدة . فغضب الأمير غضباً شديداً وأصبح النور في عينيه ظلاماً ، ولم يعد يستطيع صبراً فركب جواده وركب معه بعض رجاله وساروا يبحثون عن غريب في جهات الجنوب ، ظناً منهم انه توجه للنزهة في منطقة حيفا وجبل الكرمل ، فقضوا بضع ساعات في البحث ، ثم عادوا الى المعسكر فاذا بغريب قد عاد اليه ومعه سالم آغا وجلسا في خيمة الآمير ، فسلم غريب على أبيه وأخبره بسبب غيابه ونوه بفضل سالم آغا عليه وانقاذه من الموت .

فقال الأمير لسالم آغا : « لا بد لنا من مكافأتك ، فاطلب ما تشاء »

فقال : « أسألك يا سيدي أن تتوسط لي أمام ابراهيم باشا ليقبلني في جيشه ، لأني كنت قبلاً من جنده وخرجت بغير اذن منه » .

فوعده بأن يأخذه في الغد الى ابراهيم باشا ، ويخاطبه في شأنه .

وفي صباح اليوم التالي سار الأمير بشير ، ومعه غريب وسالم أغا الى خيمة الباشا ، فلما شاهده ابراهيم باشا عرفه وسأله قائلاً : « ألست سالم أغا ؟ » . قال : « نعم يا سيدي اني عبدك سالم » .

قال الباشا : « وأين كنت بعد رجوعنا من حرب المورة فاني منذ نزولنا في مصر لم أشاهدك قط وحسبت أنك أصبت بسوء ؟ » .

قال : « جئت الى عكا افتش عن ضائع لي ، ثم أقمت بها » .

قال الباشا : « كيف تقول ان لك ضائعاً في هذه الجهات وقد جئت معنا من بلاد اليونان ؟ » .

فتنهد سالم وقال : « هذا هو الواقع يا سيدي ، وقد جئت الآن في صحبة سيدي الأمير طالباً العفو عن زلتي » .

فقال بشير : « انه صاحب فضل ، فقد أنقذ غريباً من الموت » .

وقص القصة عليه ثم همس في أذنه أن بقاء هذا الرجل معه يفيده كثيراً لأنه يستطلع منه أخبار العدو .

فقال الباشا : « لا بأس ، قد عفونا عنك ، ولكن عليك قبل كل شيء أن تخبرني عن حالة عكا وما هي مقاصد عبد الله باشا ؟ » .

فوقف سالم أغا ثم جثا أمام الباشا ، وقال : « لقد خرجت من المدينة سراً ، وأخرجت معي أسيراً كان يجب أن أحافظ عليه في السجن ، وبذلك خالفت أوامر رئيسي ، وأرجو أن يعفيني مولاي من اطلاعه على أسرار المدينة ، فان الأمانة تمنعني من ذلك » .

فعجب الأمير بشير لشهامة سالم ، أما ابراهيم باشا فلم يدهشه ذلك لأنه كثيراً ما شاهد

مثله منه في حروبه بأرض المورة ، لكنه قال له : « أنت في الأصل من جندنا ، فاذا أطلعتنا على أسرار المدينة كنت بذلك قد أديت واجباً عظيماً » .

فقال : « عفواً يا سيدي اني لا أحب أن أكون من الجواسيس ولا يسعني أن أخبرك بشيء عن حال المدينة مهما يكلفني ذلك » .

فتبسم ابراهيم باشا وقال : « لا بأس يا سالم فقد عودتني مثل هذه الشهامة منذ كنت معي في المورة » . ثم نادى أركان حربه وأمره أن يجعل سالماً في عداد ضباط الجيش كما كان ، فقبل سالم يد الباشا وشكر الأمير بشيراً ، وخرج .

فقال الأمير لابراهيم باشا : « لم أشاهد مثل هذه الشهامة قط » .

فتبسم الباشا قائلاً : « هذه ليست المرة الأولى التي عرفت فيها شهامته ، فقد عرفته لأول مرة منذ خمس سنوات في نافارين بالمورة ببلاد اليونان ، وليس يخفي على سعادتكم اني توجهت بعمارة بحرية بأمر الباب العالي الى هناك على أثر ثورة اليونان على الدولة ، ففي سنة ١٨٢٦ بينما كانت عمارتنا راسية في ميناء نافارين ونحن بين هجوم ودفاع على تلك المدينة ، جاءنا هذا الرجل في قارب رافعاً علماً أبيض ، ولما وصل الينا سألناه عن غرضه فذكر أنه من جنود اليونان وقد جاء مسلماً وأن تسليمه غير مبني على خوف أو خيانة ولكنه يود البقاء معنا ريثما نعود الى مصر . ولما رأيته يتكلم العربية تعجبت من حاله وسألته عن حكايته فاعتذر بأنه لا يمكنه اطلاعي عليها ، فأردت الاستفهام منه عن قوة اليونانيين ومقاصدهم فكان جوابه أنه لا يمكنه افشاء سر أؤتمن عليه وان يكن غير يوناني في الاصل لأن الشهامة تقضي عليه بكتمان ذلك، فتهددناه بطرق مختلفة، لكنه لم يفه بكلمة، وقد أعجبت بشهامته وأبقيته معنا حتى عدنا الى الاسكندرية، ثم لم أعد أراه حتى الآن».

فأوصى الأمير بشير ابراهيم باشا بمساعدته .

فرحة اللقاء

وفي أوائل سنة ١٨٣٢ كتب محمد علي باشا الى ابنه ابراهيم باشا أن يفوض الى الأمير بشير تولي الأحكام في صيدا ، وتصريف أمور جميع المقاطعات التابعة لها ، فرأى غريب أن وجوده هناك لم يعد يأتي بفائدة ، فطلب الى الأمير أن يسمح له بالعودة الى بيت الدين ، ولما أذن له في ذلك ركب مع جماعة من رجاله وسار بعد أن ودع صديقه سالم أغا ، فوصل بعد مسيرة يوم ونصف يوم الى مدينة صور .

ولم يشأ النزول في هذه المدينة ، لكنه أراد المبيت عند رأس العين قبل المدينة بمسيرة حوالي نصف ساعة ، وهو موضع فيه مياه غزيرة تفور من نبع أقيم حوله سور لحصرها فيه ، وهناك بساتين تسقى منها ، وطواحين تدور بها . فنصبت لهم الخيام هناك وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل ، والبساتين مخضرة في أول الربيع ، والجو غاية في الصفاء ، على أثر وابل غسل الأرض ونقى الجو .

فترجل غريب عن جواده وسار للرياضة في تلك البساتين ترويحاً للنفس ، بعد أن أمر من معه بنصب الخيام وتهيئة الطعام ، وسار برفقته أحد أتباعه فشاهد من بعيد شخصاً عليه عباءة قديمة فتقدم نحوه ، فاذا به شيخ طاعن السن في يده عكاز ، وقد أرخى شعر رأسه الأبيض على كتفيه ، ولحيته ملء صدره وهي الأخرى بيضاء ، ولكنه يسير مطرقاً لا يلتفت يميناً ولا يساراً . فتعجب من حاله وحدثته نفسه بأن يسأله عن أمره فناداه قائلاً : « الى أين يا سيدي الشيخ ؟ » .

فانتبه الشيخ كأنه هب من رقاد ، ووقف ينظر الى غريب ، ثم واصل سيره دون أن يجيب .

فازدادت دهشة غريب ، وعاد فقال له : « ما لك لا ترد علي ؟ ألا تعلم أن السير في هذه المنطقة لا يسمح به إلا باذن خاص ؟ » .

فالتفت اليه الشيخ مغضباً وقال : « اني عبد من عبيد الله ، أسير في أرض الله ، فليس لك ولا لغيرك أن تتدخل في هذا الأمر » .

فأعجب غريب بهذا الجواب ، وتقدم الى الشيخ محاولاً أن يأخذ بيده ، فاذا به قد غضب

وثار وحمل عليه عصاه ، فابتسم غريب وأدرك ان عقل الشيخ غير صحيح ، واعتزم أن يخاطبه على قدر عقله . ولكن تابع غريب أمسك بيد الشيخ قائلاً : « تأدب يا هذا واعلم أنك تخاطب ابن الأمير بشير » .

فبهت الشيخ ورفع عينيه الى غريب وتأمله برهة ، ثم أطرق من جديد وصار يرتجف حتى وقعت العصا من يده ، وخيل الى غريب أنه رأى وجه الشيخ من قبل ، لكنه لم يتذكر أين رآه ، وأسكت تابعه وتقدم للشيخ بكل هدوء وقال له : « ما اسمك يا سيدي ؟ » .

فقال : « قل لي أنت ما اسمك أولاً » .

قال : « أنا غريب ابن الأمير بشير ، فمن أنت ؟ » .

فرمى الشيخ بنفسه على غريب ، وأراد التكلم فلم يستطع وصارت شفتاه ترتجفان ، ومد يده الى كوفية غريب يريد نزعها ، فاراد خادم غريب منعه فلم يستطع ، فحالما وقعت الكوفية عن رأسه رنا بنظره الى جبين غريب ولمس موضع الضربة التي كان أصيب بها في الصحراء بمصر .

وسرعان ما تذكر غريب تلك الأيام ، ففطن الى أن الشيخ هو نفسه « سليمان المصري » الذي أنقذ حياته من اللصوص قاطعي الطريق ، فأمسك بكتفيه وصاح به قائلاً : « من ذا أرى ؟ . الأمير سليمان ؟ » .

فانهمرت دموعه ولم يستطع جواباً ، فصرخ غريب : « أهلاً وسهلاً بسيدي ومنقذي من الموت » . وطفق يقبل يديه ، وأمر خادمه فجاءه بالماء فرشه به وأجلسه وأخذ يحادثه ويخفف عنه حتى سكن روعه . فقال له : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ وأين كنت كل ذلك الزمن الطويل ؟ » .

فتأوه وبكى ، ولم يبد جواباً . فاستأنف غريب الحديث قائلاً : « ان أبي الأمير بشير في عكا برفقة الجنود المصريين ، وعما قليل يلحق بنا الى بيت الدين » . فقال الشيخ : « أهو بخير ؟ » . قال : « نعم ولا بد أنه سيسر كثيراً بمشاهدتك ، فان لك علينا فضلاً كبيراً ، هيا بنا الآن الى الخيام لنبيت هذه الليلة وفي الغد نركب معاً الى بيت الدين ونبقى هناك ريثما يعود أبي فيسر بمشاهدتك » .

فامتنع أولاً ، ولكن غريباً ألح عليه حتى رافقه الى رأس العين ، وهناك سأله أن يغتسل ويغير ثيابه فقال : « لا يا ولدي ، ان ثيابي لا أغيرها ، وانما لا بأس بالاغتسال » .

ثم مد السماط فأكلوا ، وكان غريب عظيم السرور لهذا الاتفاق لأنه كان يشعر بثقل الجميل الذي كان عليه لذلك الرجل الذي أنقذه من مخالب الموت وقد ترك لذلك أثراً في جبينه .

وبعد الطعام جلسوا لتناول القهوة ، فأراد غريب مفاتحة الشيخ ثانية في حكايته ، فأجابه هذا بقوله : « ان حكايتي لا أحكيها إلا أمام أبيك » . فلم يراجعه ولكنه لم يعد يعرف كيف يكرمه وخطرت في باله والدته فقال : « اني مسرور جداً بلقياك يا سيدي ، وإنما الفرح الأعظم سيكون لوالدتي فكثيراً ما ذكرت فضلك وودت لو تشاهدك ، ولا بد من أنها ستسر بك سروراً عظيًما » .

فقال الشيخ : « ان ذلك كله لحسن نيتكم ، أما أنا فلم أفعل إلا بعض الواجب علي لسيدي والدكم ولكن » . ثم خنقته العبرات فتعجب غريب ولم يكن يعلم شيئاً عما دار في شأنه .

وفي صباح اليوم التالي أركب غريب الشيخ وجعل في خدمته رجلين ، ثم ركب ومن معه وساروا حتى أمسى المساء ، وفي الصباح التالي واصلوا سيرهم حتى اقتربوا من بيت الدين .

ومضى الى القصر من بشروا من فيه بقدوم الأمير غريب ، فخرج الرجال لملاقاته فرحين ، ووقفت والدته في انتظاره لدى الباب وقلبها شديد الخفقان .

وكان وصول الموكب قبل الغروب بقليل ، فدخل غريب القصر ممسكاً بيد الشيخ حتى وصل الى البهو الداخلي ، فاذا بوالدته في انتظاره عند باب دار الحريم . فلما وصل قبلته ولم تنتبه للشيخ فأدخله معه الى قاعة الاستقبال فاضطرت والدته ومن معها من نساء القصر الى عدم الدخول معها ، فنادى غريب والدته قائلاً : « تعالي يا أماه وقبلي يد الشيخ الذي أنقذ ابنك من الموت في صحراء بني سويف » .

فدخلت « جميلة » القاعة وركبتاها ترتجفان ، وما شاهدت الشيخ حتى صرخت قائلة : « أمين ؟ أمين ؟ أأنت حي ؟ »ووقعت مغشياً عليها ! .

فذهب غريب ، وأمر بالماء فرش به وجهها ، وتقاطر أهل القصر على ضجة الصراخ ، وكان الشيخ أكثر ذهولاً من الجميع لكنه ما سمع اسم أمين حتى صرخ : « سلمى ؟ سلمى ؟ أأنت هنا ؟ » ووقع غائباً عن الصواب .

فبهت الحاضرون كافة ، ولكنهم شغلوا برش ماء الزهر على الاثنين الى أن أفاقا وأخذ كل منهما يتأمل وجه الآخر كأنهما أصيبا بجنون ثم أعادا النداء وتعانقا ، فزاد ذهول الناس ولم يكن أحد من الحاضرين يعرف الحقيقة إلا زوجة الأمير ، فأمرت كل من في القاعة بالخروج ما عدا غريباً وأبويه .

أما غريب فكان كأنه في حلم لأنه لم يكن يعرف أن ذلك الشيخ أبوه ولا ان اسمه أمين بك ، ولا أن له والداً غير الأمير بشير ، ولا أن والدته تدعى سلمى ، فأخذ منه الاندهاش كل مأخذ وكان يظن في أول الأمر أن والدته فعلت ذلك لشدة تأثرها من تذكر الخطر الذي كان

قد أحدق به وكيف أنقذه منه هذا الرجل ، ولكن لما نادى كل منهما الآخر باسم غريب عنده لم يعد يعرف كيف يؤول ذلك ، وخاف على والدته أن تكون قد جنت هي الأخرى ، فأخذ يخفف عنها ، ولكنها لم تستطع امساك نفسها عن البكاء الممزوج بالضحك من شدة الفرح ، ثم قالت لزوجها : « لماذا لا تقبل ولدك ؟ » .

فتركها وهم بغريب صارخاً : « ولدي . ولدي ! . أأنت ولدي يا غريب » . وأخذ يقبله ويعانقه وعيناه تذرفان الدموع ، فبكي غريب مشاركة لهما وهو في حيرة ، حتى ظن نفسه في منام .

فتقدمت زوجة الأمير بشير له وقالت : « لا عليك يا ولدي ، ان هذا الشيخ هو الأمير أمين بك ، وهو أبوك حقاً ، لا الأمير بشير ، والآن أرجو أن تجلسوا قبل كل شيء وتسكنوا روعكم جميعاً لنشكر الله على أن جمع شتاتكم وهو قادر على أن يحيي رميم عظامكم » .

فجلس الجميع وأخذت زوجة الأمير تقص على غريب حكاية أبيه باختصار وهو صامت يكاد لا يصدق أنه في يقظة .

ثم أراد أمين بك أن يسأل سلمى عن ولدهما سليم فأشارت اليه أن يبقى ذلك الى وقت آخر اخفاء له عن غريب . وبقي الجميع صامتين برهة ثم جاء وقت العشاء وبعد الطعام ذهبت سلمى وزوجها وولدها الى حجرتها ، ثم سألت زوجها عما هداه اليها وكيف دارت به الأحوال ، فقص عليها الحكاية حتى انتهى الى ذهابه الى الأقطار السودانية طلباً للموت لقنوطه من الوقوف على مكان اقامتها ، ثم قتله سعيداً الى أن قال : « وبعد أن ضربته انتبهت وتأملته فاذا هو لا حراك به ، وتذكرت قوله انك على قيد الحياة ، فصارت روحي عزيزة علي بعد أن كنت أعرضها للسيف والنار فطلبت الفرار من محل الوقعة حتى وصلت الى مأمن فجلست أحدث نفسي بما كان وهو كأنه حلم لدي ، فكنت تارة أكذب مخيلتي ، وطوراً أعود فأشعر بحقيقة الوقعة . ولما رجح لدي أن ما سمعته من سعيد كان في يقظة ، تكدرت لقتله ، وبكيت عليه » .

فقالت سلمى : « واحسرتاه عليه ، انه كان خادماً أميناً بل صديقاً وفياً » . ولم تستطع امساك دموعها ، ثم عاد زوجها الى الحديث فقال : « ثم تذكرت ما قاله لي فلم أستنتج شيئاً صريحاً ، لأني لم أسمع إلا قوله لي وأنا ملق بنفسي الى النار : (لا . لا تقتل نفسك ان سيدتي سلمى حية) . وكان السيف مسلولاً بيدي وكان عليه ثياب السودانيين والسيف بيده فظننته آتياً لقتلي فضربته ضربة أظنها كانت القاضية . ولم أسمع كلماته إلا بعد أن أهويت بالسيف على رأسه فلم يعد يمكنني إمساك يدي ، فالتفت اليه فاذا هو سعيد حقاً ، فأسفت وندمت حيث لا ينفع الندم ، وكان بودي أن أتفحص أمره لعل فيه رمقاً فحال العدو بيننا . ولم أعلم

ين مقرك ولا كيف أصل الى معرفته ، وكنت قد تحققت أنك لست في مصر ولا في سوريا ولا يما مررت به من بلاد السودان ، فوقعت في حيرة وأسفت لأني لم أمت قبل مجيء سعيد بذلك الخبر اذ أصبحت بعده في اضطراب عظيم ، ثم حدثتني نفسي بأن أطوف في الآفاق كما يصنع الدراويش لعل الله يجمعني بك ، وقضيت في تلك السياحة تسع سنوات كاملة حتى سقم جسمي من الحزن والتعب وخفت أن أموت قبل أن أراك ، فقلت في نفسي : « لأذهبن قبل موتي الى البلاد التي أخذتك منها لأشتم التراب الذي جبلت منه ، وسرت على سواحل سوريا حتى التقيت بحبيبي غريب بالقرب من صور وجاء بي الى هنا » .

وكان غريب يسمع كل هذا وهو في ذهول تام لا يكاد يصدق أنه في يقظة لغرابة هذا الاتفاق ولكون نجاته من الموت في صحراء بني سويف كانت على يد والده الحقيقي وهو لا يعلم . ثم التفت الى والدته قائلاً : « كيف استطعت أن تكتمي عني ذلك كل هذه السنين ؟ » .

فقالت : « كتمته عنك في أول الأمر لأني لم أر فائدة من اطلاعك على وفاة أبيك في مذبحة القلعة ، ولأني كنت أود كتمان أمري عن الناس كافة حتى عن الأمير بشير فهو لم يعلم إلا بعد عودته من مصر وكان ذلك على غير ارادتي . أما الرجلان الوحيدان اللذان كانا يعلمان السر فهما : خادمنا المرحوم سعيد ورئيس الدير ولم أخبرك به بعد ان علمت بوجود أبيك على قيد الحياة في مصر خوفاً من ألا تسمح المقادير بوصوله الينا فأكون قد سببت لك حزناً بلا جدوى . فتركتك على اعتقادك بأنك ابن الأمير بشير على أن نخبرك بالحقيقة اذا ظهر أبوك فيما بعد وإلا بقي الأمر مكتوماً عنك . فنشكر الله القادر على كل شيء ، فقد رد ضالتنا وجمعنا بسيدنا وملاذنا »

فتح عكا

ما زال غريب وأبواه في مثل هذه الأحاديث حتى انقضى شطر كبير من الليل وهم لا يشعرون ، وكانوا مستدفئين في غرفتهم وهم يسمعون عصف الرياح والزوابع والثلوج المتساقطة والرعود القاصفة في الخارج ، فقالت سلمى : « لعل الأفضل لنا أن نذهب الى فراشنا اذ قد مضى معظم الليل وأجسادنا تحتاج الى الرقاد ، وفي صباح الغد نجتمع ونتم حديثنا ان شاء الله » .

فوافقاها على رأيها وذهب كل منهم الى فراشه مطمئناً إلا أمين بك فانه كان لا يزال مضطرب البال على ولده سليم ، فبكر وحده في الغد الى حجرة زوجته ، وسألها عن حكاية ولدهما فشرحت له حكايته فأسف وبكى ، فقالت له : « اني لا أزال كاتمة ذلك عن غريب لئلا أحزنه بدون جدوى » .

فقال : « حسناً فعلت ، بورك فيك من امرأة فاضلة » .

ثم استيقظ غريب وجاء الى والديه وقضوا ذلك النهار في الاحاديث ، وبعثت سلمى الى رئيس الدير ليشاركهما الفرح .

ومكث الجميع في انتظار رجوع الامير بشير ، لعلمهم انه يسر كثيرا بمشاهدة امين بك والتقائه بزوجته وولده ، فلما عاد الامير الى بيت الدين واطلع على الامر عجب لذلك الاتفاق ، وشاركهم الفرح غير انه كان مرتبك الافكار من جراء الاحوال السياسية وغضب الدولة العلية عليه لمساعدته المصريين حتى كتب والي حلب الى اللبنانيين يهددهم ويأمرهم بأن يختاروا والياً عليهم غيره ، وقد اتحد الدروز مع جنود الدولة وقامت الحرب بينهم وبين نصارى لبنان سجالا ، في دير القمر وزحلة والمتن ، الى أن قرر الدروز الثورة ضده في حمانا ليشغلوا ابراهيم باشا عن قتال الدولة في حمص .

وكانت عكا الى ذلك الحين لم يتم فتحها لانها امتنعت على الجنود المصريين اكثر من خمسة اشهر .

وفي ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ أمر ابراهيم باشا جنوده بأن يهجموا على عكا مرة واحدة، وأطلق عليها النار باستمرار ففتحها عنوة ودخلها بجيوشه وامن عبد الله باشا واليها فسلم له واقبل عليه فصافحه وطيب قلبه وسار به الى قصر البهجة، ثم بعث به بحراً الى والده في الاسكندرية.

فلما وردت البشائر الى بيت الدين بذلك نهض الامير الى عكا لتهنئة ابراهيم باشا بالفتح، وطلب غريب مرافقته فقال له: «لا داعي يا ولدي الى ذهابك الى هناك، ومن الخير ان تبقى مع والديك هنا، لان البلاد ثائرة علينا وقد اصبح اعداؤنا كثيرين فاخشى ان يكون عليكم بأس من جماعة الدروز، يمكنكم الخروج الى الجهات القريبة لترويح النفس ريثما اعود».

ولما رجع الامير من عكا اخذ يتأهب لملاقاة ابراهيم باشا في دمشق، وكان هذا قد سار لفتحها، فأخذ معه ولديه خليلا وأمينا، وترك غريباً قائلا له: «ان وجودك هنا لا بد منه لأننا نحتاج الى من يحافظ على بيتنا».

وحينما حل موعد سفر الامير ركب غريب معه لوداعه مسافة ساعتين، ثم قال له الامير: «حسبك هذا يا ولدي، فارجع الى والديك». فرجع.

وكان غريب راكبا جوادا أزرق، عليه سرج مفضض، وعلى رأسه الكوفية والعقال، وعلى كتفيه عباءة بيضاء تغطيه وتغطي ظهر جواده وكان من أجود الخيل الاصيلة، يمشي به مشية العروس مع وعورة المسالك في تلك الجبال الصخرية.

وكان غريب قلما يعجب بنفسه، ومنذ اجتمع بأبيه أمين بك وهو لا يني يفكر في خدمته وراحته، فأخذ في أثناء عودته من توديع الامير يفكر في وسيلة تمكنه من ذلك.

ابراهيم باشا في سوريا

مر غريب في طريقه الى بيت الدين بقصر جميل منعزل كان قد شاهده مراراً ولم يدخله ، فأخذ يتأمله معجباً بما يحدق به من الأشجار ، ومعظمها من التين والزيتون والكرم والصنوبر ، وشغل بتلك المناظر حيناً ، ثم سمع صوتاً يناديه من جهة القصر قائلاً : « خذ حذرك يا أمير غريب ! » .

فالتفت فلم ير أحداً ، لكنه ما لبث أن سمع وقع حوافر جواد مسرع وراءه ، وعليه رجل ملثم منقض عليه برمح في يده يريد طعنه به ، فاستل غريب سيفه بأسرع من لمح البصر وتلقى به ذلك الرمح فقطعه نصفين ، ثم هجم على ذلك الفارس وهو لا يعلم من هو صائحاً به : « من أنت يا خائن ؟ » .

فلم يرد الفارس ، ولكنه أخرج من سرج جواده مسدساً وحاول اطلاقه عليه ، فانقض غريب عليه وأمسك المسدس بيده فخرج الطلق في الهواء ، وسرعان ما برز من الجهة التي جاء الفارس منها جماعة من الفرسان جميعهم ملثمون ، فصرخ فيهم غريب بقلب لا يهاب الموت قائلاً : « ماذا تريدون أيها الأنذال ؟ أتظنون أن كثرتكم تخيفني ؟ » . قال ذلك وهجم بسيفه فضرب أحدهم على رأسه فقضى عليه ، وضرب الآخر فأصابه ما أصاب رفيقه . لكنهم تكاثروا عليه حتى تعبت يده من الضرب وأصيب بضربة في ذراعه اليسرى . واستمرت المعركة ساعة شعر بعدها غريب بأنه في خطر وكاد يعمد الى الفرار فسمع صوتاً يقول له : « لا عليك يا أمير غريب ، ولا تبال هؤلاء الخائنين الغادرين » . فالتفت الى جهة الصوت فاذا بفارس ملثم خرج من تلك البساتين وقد جرد السيف وهجم على أولئك الفرسان ، فاشتد قلب غريب وعاود الهجوم عليهم حتى فروا تاركين وراءهم ثلاثة من القتلى .

وهمز غريب جواده وهو مذهول ، ليقترب من ذلك الفارس الملثم ليشكر له فضله ويسأله من يكون ، ولكن هذا سرعان ما أدار شكيمة جواده الى ذلك القصر بعد أن أومأ الى غريب مودعاً ، ومضى لا يلوي على شيء .

وناداه غريب قائلاً : « بالله عليك يا أخي قف لأكلمك » . فلم يجبه .

فعجب غريب لذلك واشتد ميله لمعرفة الفارس وسار في أثره ، فهمز الفارس جواده حتى

دخل الحديقة وترك جواده واختفى داخلها بأسرع من لمح البصر .

فتعقبه غريب الى الحديقة ، ولكن الخدم أوقفوه وسألوه : « ماذا تريد؟». فقال : « أريد مقابلة صاحب هذا القصر » .

فقال أحدهم : « انه ليس هنا » . فقال : « لا بأس ، اذن أقابل الفارس الذي دخل أمامي الآن » .

فقال الخادم : « لا يوجد فارس هنا الآن ، ولعل الأمر تشابه عليك » .

فقال : « كلا ، لا شك عندي في وجود فارس هنا لأني رأيته بعيني واصلاً هذه الحديقة بجواده » .

فغالطه الرجل ، وكان غريب قد نسي جرحه في ذراعه لشدة تأثره بهذا الأمر ، ثم أحس به فخاف اذا طال أمره ولم يغسله ويعالجه أن يضره ذلك ، فقال للرجل : « هل تعلم انك تخاطب ابن الأمير بشير؟ » .

فبهت الرجل وتقدم الى غريب قائلاً : « العفو يا سيدي ، لم أكن أعلم ذلك » . ثم أمسك بركاب الجواد وأنزله ودخل به الى القصر ، وأصعده الى الطابق العلوي فأدخله قاعة مفروشة بأثمن الفرش .

فقال غريب : « لا حاجة لي بكل ذلك ، وانما أريد منك قليلاً من الماء لأغسل جرحي وقطعة قماش لأربطه » .

فخرج الرجل ليأتي بما أمره به ، وبقي غريب في تلك القاعة مفكراً في حكاية ذلك الفارس ، وفيما هو يهم بكشف ذراعه لغسل الدم ، اذا بفتاة مقبلة على الغرفة كأنها حورية من حور الجنان ، وعليها ثوب بسيط أبيض ناصع ، وهي طويلة القد رشيقة الحركات مع رزانة ووقار ، وعيناها سوداوان كبيرتان ، ولونها قمحي ، وشعرها أسود حالك قد ضفرته وأرسلته على ظهرها وكتفيها ، وتتجلى على محياها ملامح البساطة والكمال مع ما هي فيه من غضاضة الشباب .

فلما رآها أطرق خجلاً وعلا وجهه الاحمرار لأنه كان مكشوف الذراع ، فابتدرته قائلة : « لا تؤاخذني يا سيدي على مجيئي اليك بغير استئذان ولا معرفة سابقة ، ولكن الخادم أخبرني انك مجروح الساعد ، وقد ذهب ليأتيك بما يلزم لتضميده ، وأنا الآن وحيدة في هذا البيت فلم أر بداً من المجيء لأعينك على ذلك » .

فرفع غريب نظره اليها وقد ذهل لحسنها ولطفها ، وشعر بخفقان قلبه لأول مرة أمام فتاة ، فشكر فضلها قائلاً : « اني شاكر لفضلك أيتها الآنسة اللطيفة ، ولكني آسف لتحملك هذه المشقة بسببي ، وأشكر المقادير التي ساقتني الى مشاهدتك » . قال ذلك وقلبه يخفق

وأعضاؤه ترتجف .

ثم جاء الخادم بالماء فغسلت الفتاة ذراع غريب ولفتها بالعصابة ، وكان غريب في أثناء ذلك غارقاً في بحار من الهواجس ، وهاج به الوجد ، وكلما مست يدها يده وهي تضمد الجرح شعر بكهرباء تجري في دمه ، على أنه لاحظ أنها لم ترفع نظرها اليه ولا نطقت بكلمة واحدة ، فكان الاثنان صامتين والقلبان يتكلمان .

فلما انتهت من تضميد جرحه ، جلست على مقعد أمامه وأخذت ترحب بقدومه ، أما هو فكان كأنه غائب عن الصواب ، ثم شدد عزيمته وحاول اخفاء ما به ولكنه لم يقدر أن يرفع نظره الى الفتاة إلا عندما تخاطبه أو يخاطبها لأن الحياء كان يمنعه من ذلك كما كان يمنعها ، ثم ابتدرها قائلاً : « هل لك أن تخبريني عن صاحب هذا البيت ؟ » .

فقالت الفتاة : « انه يا سيدي غائب الآن وقد سافر في هذا الصباح مع سيادة والدكم الى دمشق » .

قال غريب : « حسناً ، ومن هو ؟ » .

قالت : « اسمه الأمير سعيد » .

قال : « أليس من عشيرة بني شهاب ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدي » .

قال : « وهل أحد من أولاده ههنا الآن ؟ » .

قالت : « ليس هنا من أولاده أحد سواي ، بل ليس له أولاد غيري » .

فقال : « أنعم بك يا سيدتي ، والآن أريد أن أسألك سؤالاً آخر ، أخشى أن أكون قد أكثرت من التطفل ، على أني في حال من الدهشة تدفعني الى كثرة السؤال فهل تعذرينني على كثرة تطفلي ؟ » .

قالت : « عفواً يا سيدي ، سل ما تشاء » .

قال : « لقد كنت في ضيق بلغ حد الخطر ، فخرج من هذا القصر فارس أنقذني من الموت ، وكان ملثماً فلم أعرفه ، ولما أردت مقابلته همز جواده وانطلق به الى هنا ، فاقتفيت أثره فاذا به قد دخل هذا البستان ثم رأيته ترجل ودخل هذا القصر ، فمن يكون هذا الفارس ؟ » .

فأطرقت الفتاة وعلا وجهها الاحمرار ولم تبد جواباً ، وأخذت تتشاغل بثني أطراف ثوبها بين أناملها . فعجب غريب لسكوتها وخجلها وندم على توجيه السؤال اليها بعد أن ذكرت له أنها وحيدة في البيت ، وليس فيه أحد من الرجال ، ثم استأنف غريب الحديث قائلاً : « لقد أخطأت بتوجيه هذا السؤال يا سيدتي فأسألك الصفح والمعذرة » .

فرفعت رأسها وأجابته قائلة : « عفواً يا سيدي فانك لم تأت ما يعتذر منه أمثالك من الأمراء المهذبين » .

فخجل غريب من هذا المديح وأطرق ، فقالت الفتاة : « أما سؤالك عن الفارس الذي خرج من هذا البيت لمساعدتك ثم عاد اليه ، فأرجو أن أجيبك عنه في فرصة أخرى اذا قدر لنا الاجتماع ثانية » .

قال غريب وقد هاجت عواطفه : « اذا كان اجتماعنا لا يتم ثانية إلا بمعركة كالتي جمعتنا في هذه المرة ، فحبذا المعارك » .

فسكتت الفتاة ولم تبد جواباً .

وبقي الاثنان صامتين مطرقين لا يبديان حراكاً ، ثم تذكر غريب والديه وخاف أن يستبطئاه والشمس قد مالت الى مغربها ، كما لاح له أيضاً أن وجوده مع الفتاة في القصر منفردين ربما يؤدي الى شبهة تضر بسمعتها ، فنهض مستأذناً ، فنهضت لتشييعه ومدت يدها اليه مودعة داعية له بالسلامة وقالت : « ألا تخشى أن يعود اولئك الأشقياء ثانية ؟ » .

فقال لها : « لا بأس علي باذن الله » . وغادر القصر وكأنه قد ترك قلبه ، فاذا بالخدم قد أعدوا له الجواد فركب وسار قاصداً بيت الدين .

وقبل أن يتوارى عن القصر التفت اليه فاذا بالفتاة تنظر اليه من احدى نوافذه ، فسار مشغول الفكر بها ، وأحس بأنه أحبها كل الحب ، وود لو تسمح المقادير بأن تشاركه حياته ، ثم تذكر أن والدته كانت تريد أن تزوجه قبل سفره الى عكا من فتاة ذكرتها له وخشي ألا يميل قلبه الى تلك الفتاة التي اختارتها والدته ، وعند ذلك ربما تقوده عواطفه الى مخالفة أمر والديه في حين أنه يبذل الطاعة التامة لهما .

وما زال سائراً وهو يحدث نفسه بمثل ذلك حتى وصل بيت الدين فاذا بوالديه ينتظرانه بفروغ صبر ، فهما به وقبلاه ، ولاحظا أنه متغير الوجه تبدو عليه مظاهر الارتباك ، وسألته والدته عن سبب ذلك ، فروى لهما ما حدث له من أوله الى آخره الى أن ذكر الفارس الذي خرج لمساعدته من القصر ، وكيف أنه عاد ولم يعرف مقره ، ثم قال لوالدته : « وفي المساء سأقص عليك بقية قصتي » .

فقلقت الأميرة لذلك ، ولكنها صبرت الى أن جاء المساء فقص عليها ما دار بينه وبين الفتاة من الحديث الى أن قال : « وأعترف لك يا والدتي بأني قد علقت هذه الفتاة لما رأيت فيها من الكمال واللطف والرقة والجمال ، وأظنها كانت سبب نجاتي من أيدي اللصوص ، ولكنك ذكرت لي فتاة أخرى خطبتها لي فمن تكون ؟ » .

فقالت سلمى : « أنا لا أريد أن أكرهك على ما لا تحب ، وانما أقول لك ان الزواج من

أهم الأمور ، ولا بد من التبصر قبل التصميم عليه ، وأنا لا أعرف هذه الفتاة وربما تكون موافقة ، وأما الفتاة التي خطبتها لك فأعرفها جيداً وهي من عائلة بني شهاب ، ووالدها ليس له غيرها » .

فقال غريب : « وهذه أيضاً وحيدة أبويها ومن عائلة بني شهاب » .

قالت : « ان كونها وحيدة أبويها ليس كل الفضائل المطلوبة ، أما الفتاة التي خطبتها لك فأبوها من الأمراء المقربين لدى الأمير بشير ، وقلما يسير في سفر مهم إلا صحبه معه » .

فقال غريب : « وما اسم أبيها ؟ » .

قالت : « الأمير سعيد » . فصرخ غريب قائلاً : « اذن هي نفسها الفتاة التي رويت لك حديثها » .

فقالت : « ما أظن أنها هي ، لأنك ذكرت أنها قابلتك وحدثتك ، والأميرة التي أعنيها لا تقابل أو تكلم أحداً لا تعرفه » .

فقال : « لقد قضت عليها الضرورة بالظهور أمامي ، والضرورات تبيح المحظورات » .

فقالت : « أين هو ذلك القصر الذي قابلت فيه فتاتك ؟ » .

فلما وصفه وحدد موضعه ، قالت له : « يلوح لي أنك مصيب في ظنك ، لكنك ذكرت أن فارساً خرج من ذلك القصر وعاد اليه ، وليس في قصر الأمير سعيد رجال » .

فقال : « لما سألتها عن ذلك الفارس ، ذكرت لي أنها ستحدثني بأمره في فرصة أخرى ، ولم أفهم مرادها ، وأكبر الظن أنها هي ذلك الفارس » .

قالت : « وأنا أيضاً لم أفهم مرادها ، على أني لا أستبعد أن تكون هي التي نادتك وحذرتك أولاً ثم خرجت بنفسها ملثمة لمساعدتك ، فاني أعلم أنها تحسن ركوب الخيل وشجاعتها يعز نظيرها حتى في الرجال » .

فسر غريب لذلك لأنه رأى فيه باباً لانفراج المشكلة ، ثم عاد هو والدته الى حيث كان يجلس أمين بك ، فقصت عليه قصة غريب وفتاة القصر ، وجلس الثلاثة يتشاورون في الأمر ، فاتفقوا على أن يخطبوا الفتاة من أبيها حالما يعود من سفره مع الأمير بشير .

أما غريب فلم يعد يستطيع صبراً على بعد الفتاة وأحس أنه مشتاق الى رؤ يتها ، فان تلك النظرة كانت كافية لارتباط القلبين ، ولكنه كان يمسك نفسه محافظة على كرامة الفتاة .

فلما عاد أبوها من ذلك السفر وعاد الأمير بشير أيضاً تفاوض أمين بك والأمير في شأن خطبة الفتاة من أبيها ، فتوقف الامير بشير عن الجواب ، فارتاب أمين بك في الأمر ورغب اليه ان يجيبه

يجيبه بصراحة فقال : « ان الفتاة تربت أحسن تربية ، وهي كاملة الأوصاف ، غير أني لا أدخل في أمر خطبتها ، فاذا شئتم فاخطبوها أنتم من أبيها ، أما أنا فلا أكلمه » .

فقال أمين بك : « قد كنت أعلم أن سعادتك تختص ذلك الأمير بكثير من الثقة والاعزاز وهذا ما قوى رغبتنا في خطبة ابنته لغريب » .

فقال الأمير : « كنت كذلك ، أما الآن فقد علمت عنه ما أوجب نفوري منه ، فلا يمكنني مخاطبته في شأن تلك الخطبة » .

فقال أمين بك : « اذا كانت الحال كذلك ، فنحن في غنى عن تلك الفتاة ، ولا سيما أن غريباً لا يعرفها ولم يرها إلا مرة واحدة » .

ولم يكن أمين بك يعلم مقدار ما كمن في قلب ولده من المحبة للفتاة ، فلما رجع الى امرأته وولده وروى لهما ما سمعه من الأمير بشير ، تكدر غريب لذلك ، وكانت الأميرة سلمى تحب تلك الفتاة وتجلها كثيراً ، ولكنها لم تر مراجعة الأمير بشير ، ولا سيما بعد أن جاراه أمين بك في ذلك .

أما غريب فأظلم الضياء في عينيه ووقع في ارتباك عظيم ، ولم يعد يدري كيف يحل تلك المشكلة لكنه تجلد وقال في نفسه : « ما لا تقدر على قضائه فالزمن يقضيه » . وأخذ يصبر نفسه منتظراً باباً للفرج ، فلاح له أن أفضل وسيلة انما هي مصالحة الأمير ووالد الفتاة ، فأخذ يسعى سراً في ذلك وهو في خوف من أن تخطب الفتاة لغيره .

□

جاء ابراهيم باشا الى بيت الدين لجمع أسلحة طائفة الدروز سنة ١٨٣٢ ، فكتب الأمير الى جميع أعيان الدروز بأن يطيعوا الأمر ويسلموا أسلحتهم .

ونزل ابراهيم باشا خارج دير القمر في خيام أعدت لذلك . وكان غريب قد حاول مشاهدة الفتاة التي علق بها فؤاده ، كما حاول أن يصلح بين أبيها وبين الأمير بشير ، فلم تكلل محاولاته في هذا وذاك بالنجاح .

واتفق أن التقى يوماً بأبيها ، وكان الأمير سعيد يحب غريباً لكثرة ما سمع عنه من الثناء . وكان التقاؤهما في أحد البساتين فأخذا بأطراف الحديث حتى أظهر الأمير سعيد سبب النفور الذي بينه وبين الأمير بشير ، فقال غريب : « لدي سر أريد أن أفضي به اليك » .

فقال الأمير سعيد : « قل ما بدا لك » .

قال : « اني كنت اتفقت مع والدتي على أن تخطب لي ابنتك لعلك ترضى بأن تكون رفيقة حياتي ، ولما فاتحنا الأمير بشيراً ظهر لنا منه أنه لا يعارض في الخطبة ، على ألا يتدخل هو

في الأمر ، وطبعاً لا يليق بي أن آتي عملاً لا يرضاه الأمير ، واني أعترف لسيادتكم بأني أحببت ابنتكم حباً شديداً ، اذ رأيتها مناسبة لي ، كما أن والدتي تحبها كذلك وتجلها . ورأينا الوسيلة الوحيدة لحل هذه المشكلة ان يتم الصلح بين الأمير وبينك ، فما قولك ؟ » .

فتأوه الأمير سعيد وصمت هنيهة ثم قال : « لو أنك خاطبتني في هذا الأمر منذ يومين لهان كل صعب ، فان الخلاف الذي بيني وبين الأمير لا يصعب زواله ، وانما هناك مشكلة أصعب من ذلك كثيراً » .

فاختلج قلب غريب وقال : « وما هي تلك المشكلة ؟ » .

فقال الأمير سعيد : « ان ابراهيم باشا بعث الي مساء أمس وكيله حنا بك البحري ، خاطباً ابنتي لأحد كبراء ضباطه المقربين منه ، فلم يسعني إلا القبول ، وتواعدنا على أن يأتيني بذلك الضابط لأشاهده الليلة في منزلي ، وهذا سر أرجو كتمانه » .

فاضطرب غريب وكاد يتميز من الغيظ وثارت في صدره ثائرة الانتقام ، وشعر بأن تعقد مسألة زواجه بابنة الأمير سعيد لم يزده إلا هياماً بها ، فقال له : « والآن ماذا أصنع يا سيدي ؟ » .

فقال الأمير : « أنا أكثر ارتباكاً منك ، ولا أستطيع رفض أمر ابراهيم باشا ، رغم أني لا أعرف أصل ذلك الضابط وفصله ، وابنتي عزيزة عندي لأنها وحيدتي ، فكان يسعدني أن أزوجها منك » .

فحار غريب في أمره وأطرق هنيهة ثم قال : « متى يأتي ذلك الضابط اليك ؟ » .

قال : « موعدنا الليلة بعد الغروب بقليل » . قال : « حسناً » . وودعه وخرج .

وسولت الغيرة لغريب أن يتعرض لذلك الضابط في طريقه الى قصر الأمير سعيد ، ويخاطبه في شأن الفتاة ليرجعه عن خطبتها باللين أو العنف ، بل حدثته نفسه بأن يقتله اذا لم يقبل العدول عن خطبة الفتاة ، ولكنه عاد فرأى أن ذلك لا يتفق مع الشرف والشهامة .

وظل ساعات تتنازعه عواطفه المتضاربة ثم قر رأيه على أن يجيب داعي قلبه فيلقى ذلك الضابط ويتهدده في الطريق ويرى ما يكون منه .

فلما كانت الساعة الأولى بعد الغروب ، لبس غريب ثيابه وهم بالخروج من البيت ، فسألته والدته عن جهة مسيره فذكر لها أنه ذاهب لزيارة أحد أصدقائه في معسكر ابراهيم باشا فقالت : « هل نسيت ما حل بك منذ حين من قطاع الطريق ؟ » .

فقال لها : « لم أنس ذلك ، ولكن لكل زمان دولة ورجالاً ، وفي وجود ابراهيم باشا وجنوده في هذه المنطقة ما يكفي لمنع مثل تلك الحوادث » .

فقالت : « سر في حراسة الله » .

فسار وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، ولما خرج من بيت الدين تنكر ووقف في الطريق المؤدية الى قصر الأمير سعيد ليقابل الضابط المصري حين يجيء .

وبعد الغروب بقليل رأى شخصاً قادماً وحده ، قاصداً الى قصر الأمير سعيد ، فتأمله فاذا هو في زي الضباط المصريين وهو السراويل المعقودة تحت الركبتين والزنار الأحمر العريض وعلى رأسه الطربوش التونسي ، فلما رآه غريب خفق قلبه وارتعدت فرائصه من شدة التأثر ، ثم اعترض طريقه وحياه ، فرد الضابط التحية في أدب ، فقال له غريب : « هل تشعل لي هذا الغليون » . وأشار الى غليونه .

فقال الضابط : « حباً وكرامة » . وأخرج زناداً وصواناً أشعله وقدمه لغريب ليشعل غليونه ، فاغتنم غريب تلك الفرصة وتفرس في الرجل على ضوء الصوفان المشتعل ، فخيل اليه أنه رأى ذلك الوجه من قبل ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر أين كان ذلك لشدة انشغاله بما هو فيه .

فقال : « الى أين أنت ذاهب في هذا الليل ؟ » .

فقال الضابط متلطفاً : « هل جرت العادة هنا بأن تعترضوا الناس في طريقهم لتحاسبوهم على نياتهم ؟ » .

فقال غريب : « أجب عن السؤال أولاً ، وسأطلعك على الغرض منه بعد ذلك » .

فقال الضابط : « ولكني لا أرى مسوغاً لهذا السؤال ، ثم أحب قبل كل شيء أن تعلم أنك تخاطب ضابطاً من ضباط ابراهيم باشا » .

فخيل الى غريب أنه سمع صوت هذا الضابط من قبل ، وقال : « أنا أعلم ذلك ، واذا كنت لا تريد أن تجيبني عن هذا السؤال فلا أقل من أن تخبرني باسمك ؟ » .

فابتسم الضابط وقال : « اسمي سالم أغا » .

فقال غريب : « سالم أغا ؟ صديقي سالم . أهلاً وسهلاً بأخي وحبيبي ، أأنت هو الضابط الذاهب الى قصر الأمير سعيد ؟ » .

فقال سالم : « الأمير غريب ؟ . أية مصادفة جميلة هذه ؟ » . ثم هم به وعانقه وأخذا يتبادلان القبلات ذاهلين صامتين الى أن قال سالم : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ وماذا كان غرضك من التعرض لي ؟ » .

فقال غريب : « كنت أنتظر مرور أحد الناس من هنا ، وقد حسبتك إياه ، فالى أين أنت ذاهب ؟ » .

قال : « الى بيت الأمير سعيد شهاب ، أليس هذا بيته ؟ » .

قال : « نعم أنه هو ، وسأوصلك اليه » .

ثم أخذ بيده مرحباً به ، ومضى وهو يحدثه حديث المودة والوفاء ، وقد سكن جأشه وخمدت في صدره عاطفة الانتقام ، وصمم على أن يتنازل عن خطبة الفتاة اكراماً وعرفاناً بجميله القديم معه » .

وما زالا سائرين حتى بلغا باب القصر فطرقاه ، فجاء الأمير سعيد لاستقبالهما ، فلما رآهما معاً عجب غاية العجب ، وخشي أن يترتب على ذلك أمر لا تحمد عاقبته ، لكنه تجلد وأدخلهما غرفة الاستقبال ، فجلسا وقدمت لهما القهوة والتبغ ، وهما لا ينقطعان عن تبادل السلام والحديث فيما جرى لهما أثناء افتراقهما الطويل ، كل ذلك والأمير سعيد ينظر اليهما ويسمع حديثهما وهو في دهشة وذهول .

وأخيراً التفت غريب الى الأمير سعيد وقال له : « عفواً يا جناب الأمير ، لقد جئناك في هذه الليلة لأمر ذي بال ، وأملنا أنك لا تردنا خائبين » .

فقال : « اني رهن اشارتكما ، ولكما الأمر وعلي الطاعة » .

فقال غريب : « اني جئت التمس منك أن تسمح بقبول خطبة أختي سعدى ابنتكم لأخي سالم أغا البطل الصنديد والشهم الغيور ، واذا كنت لا تعرفه ، فاني وأبي قد خبرنا همته ، وتحققنا انه ممن خصهم الله بالشهامة والنخوة ، ولعل ابراهيم باشا قد أخبرك عنه بما فيه الكفاية ، وما قصدنا بهذا الطلب إلا التشرف بالقرب من سيادتكم فان كريمتكم جوهرة ثمينة لا مثيل لها ، ونحن نعلم أنها تعز على كثيرين غيرنا ولكن ثقتنا بلطفكم تجعلنا نؤمل ألا تضنوا علينا بهذه المنة » .

فذهل سالم أغا ، لعلمه بأن مسألة خطبته لا يعرفها أحد غير ابراهيم باشا والأمير سعيد . ولم يكن الأمير سعيد أقل دهشة لعلمه أن غريباً كان ناقماً على سالم أغا من أجل تلك الخطبة ! .

وشعر غريب بحيرتهما فابتدرهما بالكلام قائلاً : « لا تعجبا من توسطي في هذا الأمر ، فان الأخ يجب أن يساعد أخاه في مثل هذه المهمة ، وأنا أحسب نفسي سعيداً اذا تم هذا الأمر على يدي » .

ثم أشار الى الأمير سعيد أنه يريد أن يخلو اليه ، فمضى به الأمير الى حجرة أخرى فابتدره غريب قائلاً : « اني كنت عازماً على الاقتران بكريمتكم ، وكنت أعد هذا منتهى السعادة لي ، ولما أخبرتني بأن هناك آخر خطبها نقمت عليه واعتزمت الايقاع به ، ثم فوجئت بأنه من أعز أصدقائي بل هو أخي وقد أنقذني من الموت وأظهر من الشهامة ما لا أنساه مدى العمر ، وطالما كنت أتمنى أن أكافئه على جميله ، فلما علمت بأنه هو الراغب في الاقتران بكريمتكم تغلبت على عواطفي وجئت معه لأساعده في نيل ما يريد ، وهو لا يعلم بما جرى .

فهل لك أن توافقني على زفافها اليه وان يكن ذلك مخالفاً لعوائدنا وتقاليدنا التي تقصر زواج بنات الأسرة على أبنائها ؟ » .

فعجب الأمير سعيد من أمر هذا الاتفاق ، وقال لغريب : « الحق يا ولدي اني لم أشاهد مثل هذه الشهامة قط ، وهكذا يكون الرجال . واني طوع أمرك . على أني أصارحك الآن بأني خاطبت ابنتي في هذا الأمر ، فرأيتها تميل اليك ميلاً حقيقياً ، وقد قصت علي ما جرى لها معك يوم أحاط بك أولئك الفرسان ونجوت منهم فرأت منك لطفاً ونبلاً ، وأخشى أنها لا توافق على الزواج من سواك » .

فخفق قلب غريب وقال : « اني شاكر لها عطفها الكريم ، وأؤكد لك ان عندي أضعاف ما عندها ، ولذلك كنت مصراً على طلبها منك ، وقد صبرت على ما في قلبي وقتاً طويلاً ، ولكن يلوح لي أن المقادير لم تكتب لي نصيباً فيها ، ولذلك ، اعتبر كريمتكم من الآن شقيقة لي ، أحبها محبة الأخ لأخته ، وأرجو أن تلح عليها في قبول سالم أغا ، فانه ممن يعز مثالهم ، وأؤكد لك أيضاً أن أختي سعدى ستسر به وتكون سعيدة بالعيش معه ، وزد على ذلك أن ابراهيم باشا قد خطبها لسالم أغا ، ولا بد من اجابة طلبه اتقاء غضبه فانه رجل غضوب سريع الانتقام ، وألتمس منك على كل حال ألا تدع سالماً يعلم شيئاً من أمر خطبتي لها » .

فنهض الأمير سعيد وعانق غريباً وقبله قائلاً : « لله درك من شهم نبيل ، اني لم أشاهد طول عمري مثل هذه الشهامة » .

فقال غريب : « هل لك أن تجيبني عن سؤال آخر بسيط ؟ » .

قال : « قل » .

قال : « كانت كريمتكم قد وعدتني بأن تذكر لي اسم الفارس الذي خرج من القصر لمعاونتي ، فمن هو ؟ » .

فتبسم الأمير سعد وقال : « لا أخفي عليك أنها هي التي نادتك وحذرتك ، ولما كنت أنت في تلك المعركة كانت تنظر اليك من احدى النوافذ ، فلما رأت ما أحدق بك من الخطر ، ولم يكن في البيت من الرجال من تبعثه لانقاذك ، تزيت هي بزي الرجال ونزلت بنفسها لتنشيطك ولكنها لم ترد أن تقول لك ذلك حياء منها » .

فازداد غريب اعجاباً بسعدى ، وعجب لجمعها بين هذه الخصال الشريفة كلها ، وحدثته نفسه بالعدول عن عزمه وتنازله عن خطبتها والاقتران بها ، لكنه تذكر صداقة سالم أغا وفضله عليه ، فاستسهل كل صعب في سبيل مكافأته ، وقال للأمير سعيد : « انني عاجز

عن شكرها ، وقد رأيت أنها بذلك تليق أن تكون زوجة لصديقي سالم أغا » .

وكان سالم أغا قد ارتاب في أمر اختلاء غريب والأمير سعيد ، وفيما هو يفكر في ذلك دخل عليه الخادم بالقهوة فتناولها ، وكان في اثناء ذلك ينظر الى فرش القاعة وأثاثها ، وفكره مشغول بأمر الخلوة بين غريب والأمير وماذا عسى أن يكون حديثهما خلالها .

فلما أتم شرب القهوة أرجع الفنجان الى الخادم وسأله قائلاً : « هل الأمير غريب من أقارب الأمير سعيد ؟ » .

فقال الخادم : « نعم يا سيدي ، فان كليهما من أسرة شهاب ، واذا كانت القرابة بينهما بعيدة ، فانها ستصير قريبة بعد حين » .

فقال سالم : « ماذا تعني بذلك ؟ » .

فتلفت الخادم الى باب الحجرة لئلا يكون أحد قادماً ، ثم قال : « ان الأمير غريباً خطب ابنة الأمير سعيد ، وعما قريب يكون صهره » .

فبغت سالم أغا ، وكادت تغلبه عواطفه ، لكنه تجلد وأعاد السؤال قائلاً : « أأنت على يقين من ذلك ؟ » . فقال الخادم بصوت منخفض : « نعم يا سيدي ، وقد سمعت أباها يكلمها في ذلك الشأن اليوم قبل الغروب بقليل » .

فذهل سالم أغا وداخله شك في مرافقة غريب له وما سمعه من حديثه مع الأمير في شأنه ، وقال في نفسه : « لعلهما اختليا للمحادثة في ذلك فيجب علي أن أتنازل عن الفتاة لغريب ، لأنه أحق مني بها اذ هو قريبها ومن الأمراء مثلها » .

وفيما هو في ذلك دخل الأمير سعيد وغريب يلوح على وجهيهما علامات السرور والانبساط ، فوجدا سالماً مرتبك الأفكار ، فلما جلسا قال الأمير سعيد لسالم أغا : « اني مسرور جداً لما سمعته عن جنابك من الأمير غريب ، ولذلك أعد نفسي سعيداً اذا أتيح لابنتي أن تكون خادمة في بيتك لا زوجة لك فقط ، فأنا من الآن أدعوك صهري » .

فأجاب سالم أغا قائلاً : « اني مدين لجنابك بهذه المنة الكبرى ، كما أني عاجز عن شكر صديقي الأمير غريب ، ولكن هناك أمراً يخجلني أن أصرح به الآن بعد أن تذكرته ولم يكن في الحسبان » .

فقال الأمير : « خير ان شاء الله » .

فقال : « لا أعلم اذا كان خيراً أو شراً ، وهو اني مسافر من هذه الديار في أقرب وقت الى حرب لا أعلم ان كنت أعود منها حياً أم لا ، ولذلك أرى الأوفق أن نؤجل أمر الاقتران حتى أعود » .

فقال غريب : « وما هو هذا السفر ؟ » .

فقال سالم أغا : « أنت تعلم أن الدولة لا تزال تسعى في اخراج ابراهيم باشا من هذه الديار ، وان تكن في الظاهر قد ولته اياها ، ولن تلبث قليلاً حتى تبعث جنداً كبيراً لاخراجه ، لأن الدول الأجنبية غير راضية ببقائه هنا » .

فقال غريب : « هب ذلك صحيحاً فاني أسعى بكل ما في وسعي لاخراجك من جند ابراهيم باشا ، كي تبقى معنا هنا ونعيش معاً ، ونتخلص من الحروب ، على أني لا أظن ابراهيم باشا طلب زواجك دون أن يكون قد اعتزم اعفاءك من الحروب والاسفار » .

فأفحم سالم أغا ، ولم يدر كيف يجيب ، وكان يريد بتأجيل عقد القران أن يمهد لتنازله عن الفتاة لغريب ، فانتحى به ناحية وقال له : « اني لفي عجب مما ظهر لي منك هذه الليلة ، فلا أدري من أخبرك بعزمي على الاقتران بابنة الأمير ، وقد ازداد عجبي لما علمت انك كنت قد خطبتها لنفسك فلماذا لم تقترن بها ؟ » .

فقال غريب : « ان الأمير بشيراً لم يوافق على ذلك لنفور بينه وبين الأمير سعيد » .

فقال سالم أغا : « أنا أسعى في ازالة هذا النفور ، وذلك أمر سهل » .

فقال غريب : « ان ذلك النفور لا تمكن ازالته ، ولم يعد ممكناً لي الاقتران بها ، فهي نصيبك وأرجو ألا تراجعني في هذا الأمر ، لان اقتراني بها أصبح مستحيلاً ، فالأولى أن تأخذها أنت فانها تليق بك » .

فرأى سالم أن لا أمل في اقناع غريب ، فتظاهر هو بأنه اقتنع بحجته ، وتواعدا على أن يعودا لاتمام الخطبة في الغد ، وقد أضمر سالم أن يتخلى عن الفتاة لغريب .

فلما كان الغد ، مضى غريب الى الموضع الذي اتفق معه سالم على اللقاء فيه ليذهبا بعد الموعد المحدد ، لكنه لم يأت . فعجب غريب وساوره الشك في السبب الذي حدا بصديقه سالم الى اخلاف موعده . وبقي ينتظره ساعات حتى جاء المساء ويئس من مجيئه ، فعاد الى بيت الدين ، وفي نيته أن يذهب اليه في المعسكر صباح اليوم التالي ليرى ما أخره .

وفيما هو يهم بمغادرة بيت الدين في الصباح ، وفكره مشغول بأمر سالم ، اذا بهذا قد أقبل عليه وهو يبتسم ، فحياه مرحباً به ، وسأله عما أخره عن موعد أمس ، فقال سالم : « كنت منهمكاً في حفلة زفافي » .

فبغت غريب وسأله : « أي زفاف تعني ؟ » . فقال : « لقد انتهى الأمر يا صديقي ، وعقدت قراني ليلة أمس بفتاة أخرى ، فالعاقبة عندكم في المسرات » .

فعجب غريب لذلك وكاد ألا يصدق ولكن سالماً أثبت له صحة دعواه ، ثم قال له : « والآن هيا بنا الى قصر الأمير سعيد ، لنتم خطبة كريمته لمن هو أولى بها » .

فأدرك غريب أن سالم أغا تزوج حتى لا يبقى هناك مجال للكلام في مسألة اقترانه

بسعدى ، فتنهد وقال له : « أيليق ذلك بك ؟ » .

قال : « لا يليق بي إلا هذا ، وهذه سعدى عروسك بارك الله لك فيها ، وان سروري باقترانك بها سيكون أعظم ، ولا سيما لعلمي انها لو خيرت بيننا لما اختارت سواك ، فلا يليق بي أن أمنعها ممن تحبه ، وها قد قضي الأمر فهيا بنا » .

فعانقه غريب وقبله مثنياً على كرم أخلاقه ، ثم قال : « تعال لأعرفك الى أبي ، ونرى ما يستقر عليه الأمر ، واني لمعجب بشهامتك » .

فهم سالم به وقبله وقال : « والله لا أراني إلا مقتبساً من بحرك ولم أسمع أن شاباً تخلى عن حبيبته لأحد سواك » .

وفيما كان أمين بك والأميرة سلمى يتبادلان الحديث في شأن خطبة سعدى ابنة الأمير سعيد لابنهما غريب ، سمعا وقع أقدام بالقرب من الحجرة ، ثم اذا بغريب قد دخل ومعه ضابط مصري فنادت سلمى : « غريب ؟ » . فقال : « نعم يا أماه ، تعالي فلا حاجة الى التحجب فالذي ترينه معي من أعز أصدقائي بل هو أخي بعهد الله » .

ثم أخذ بيد سالم ، وقدمه لوالديه ، وروى لهما ما كان من أمره وأمر زواجه وما في عمله هذا من الشهامة والنخوة ، فأعجبا به وازدادا محبة له ، وفرحا بعدوله عن خطبة سعدى لأنهما كانا يحبان الفتاة ويرغبان في زواج غريب بها .

ثم أخذ الجميع في أحاديث السمر ، حتى حان وقت الغداء فتناولوه ، وألحوا على سالم في أن يمكث لتناول العشاء وقضاء السهرة معهم ، ولا سيما أن الليلة مقمرة صافية الجو ، فلم يسعه إلا القبول ، وبعد العشاء أمر غريب بعض الخدم فجاءوهم بالوسائد ليجلسوا عليها في ضوء القمر ، فجلسوا وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث بعد أن ملأ أمين بك غليونه وملأ غليوناً لكل من سالم أغا وغريب ، وجيء لهم بالقهوة .

وأخيراً قال سالم أغا : « كنت أظن أن الأمير بشيراً والد أخي غريب » .

فقال غريب : « نعم هو والدي بالتربية ، أما والدي الحقيقي فهو هذا الشيخ » ثم أستأنف الحديث قائلاً لوالده : « هذا هو الصديق الذي أنقذني من سجن عكا كما أخبرتكم منذ بضع سنين » .

فقال أمين بك : « يلوح لي من ملابسه أنه من ضباط ابراهيم باشا ، ونعم الرجل هو ، نطلب من الله أن يقدرنا على مكافأته » .

ثم قال له : « هل الجنود المصريون سيقيمون طويلاً في لبنان ؟ » .

فقال سالم أغا : « لا أظن اقامتهم تطول بعد أن يتم جمع أسلحة الدروز ، وقد علمت

أنهم سيجمعون أسلحة النصارى أيضاً توطيداً للأمن » . فقال أمين بك : « وهل تظن ابراهيم باشا يتوقع خروج هذه الديار من يده ؟ » .

قال : « انه يشك في نية الحكومة العثمانية ، فهي وان تكن قد ولته هذه البلاد بأوامر شاهانية حسب اقرار مؤتمر كوتاهيا الذي عقد في ١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ ، ولا ترى ترك ذلك الحكم له لأسباب كثيرة ، منها أن الباب العالي لم يوافق على ذلك إلا لوقوف ابراهيم باشا عن التقدم الى الأناضول والاستيلاء على أملاك الدولة هناك ، والذي أراه أن هذا البطل أعظم من ذلك كثيراً فتراه على كثرة ما يقاسيه من القلاقل من ثورات أهل سوريا المتواصلة لا ينفك ناظراً الى ما وراء ذلك ويخشى أنه لا يفوز بالأناضول كما فاز هنا ، اذ ليس له هناك عضد مثل سعادة الأمير بشير » .

فقال أمين بك : « عجباً لهذا الباسل ، فاني أراه أشجع من أبيه » .

فقال سالم أغا : « قد سمعت الناس يتحدثون بشجاعة أبيه من قبله ، ولعل الفرق بينهما أن والده أرق جانباً وأحسن سياسة منه ، أما هو فأقرب الى رجال الحرب من أبيه . فمحبة الناس لأبيه مقرونة بالاحترام أما محبتهم له فمقرونة بالخوف . وقد شهدته في وقائع عدة ببلاد اليونان وعجبت لبسالته ، ولولا العمارتان الانجليزية والفرنسية لكان فوزه تاماً في نافارين رغم ما أظهره اليونان من الهمة والنشاط في الدفاع » .

حرب المورة ونكبة الانكشارية

التفت غريب الى سالم وسأله : « ما سبب ثورة اليونان ، هل تعرف عنها شيئاً ؟ » .

فقال سالم أغا : « نعم لأني أخذت الى تلك الديار وربيت فيها ، فقد كانت بلاد اليونان ولاية من ولايات الدولة العلية ، غير أن الشعب اليوناني شعب قديم ، وكان لا يفتأ يذكر أيام دولته القديمة وما كان من رفيع مجدها وعظيم سطوتها ، واتفق في ذلك العهد أن ولاية الصرب التي كانت من ولايات الدولة العلية استقلت بأحكامها استقلالاً محدوداً بمساعدة الدولة الروسية لارتباطها معها بجامعة الدين والجنس . فلما رأى اليونان ذلك ثارت في نفوسهم محبة الاستقلال ، فأخذوا يتكاتبون في سائر أنحاء العالم ، لأن الشعب اليوناني كثير الأسفار كما تعلمون ، فألفوا جمعيات سرية في روسيا والنمسا واليونان وغيرها ، وكانوا يدخلون فيها كل الشبان اليونانيين ودعوها (جمعية الأصدقاء) . وكنت أنا في أثينا خادماً في أحد بيوت الأعيان ، وسني اذ ذاك حوالي الخامسة عشرة ، فدعيت يوماً مع سيدي ، ولا تعجبوا لقولي اني كنت خادماً لأن ذلك لم يكن باختياري كما سأخبركم ، فلما وصلنا الى محل الدعوة دخلنا قاعة منعزلة اجتمع فيها عدد غفير من الرجال وفي صدرها رجل جالس ، وأمامه مائدة فوقها كتاب أظنه التوراة ، فدعا كلاً منا على حدة ، فلما دنوت منه قال لي : (ضع يدك فوق هذا الكتاب) . ففعلت ثم أخذ يلقنني قسماً أذكر منه قوله : (أقسم بحضرة الأله الحقيقي قسماً ثابتاً أني سأواظب على الأمانة والاخلاص لجمعية الأصدقاء في كل الأمور ، واني لا أبوح بشيء من أعمالها أو أقوالها ، ولا أدع أحداً من أصدقائي أو أقربائي يعلم بأني عالم بوجودها ، وأقسم اني سأنمي الكراهية التي في قلبي للمستبدين بوطني وأتباعهم ونصرائهم ، واني سأتخذ كل وسيلة لابادتهم . وأخيراً أقسم بك يا وطني المقدس العزيز وبما قاسيته من المشاق والعذاب ، وبما سكبه أولادك من الدموع السخينة أثناء قرون ، وأقسم بما أنتظره من الحرية المستقبلة لك ، أن أقف نفسي لأجلك ، وأن أجعلك من الآن فصاعداً محور أفكاري ومقاصدي ، وأجعل اسمك نبراسي في جميع أعمالي وأكتفي بسعادتك جزاء لجهادي) .

« وقد أقسم جميع من حضروا الاجتماع ذلك القسم . وعلمت أن تلك الجمعية نشأت أول أمرها في (أدسا) برياسة رجل يقال له (نقولاسكوفاس) من تجار تلك المدينة . ولعلها

نشأت هناك بدسيسة روسية. وبقيت الأمور على ما هي الى مارس (اذار) ١٨٢١ فابتدأت الثورة في ولايات الدانوب ، بدأ بها ضابط يوناني في خدمة الدولة الروسية ، حتى آل الأمر الى نشر لواء العصيان في جهات الدردنيل ، وكانت الأستانة اذ ذاك في اضطراب عظيم لانقسام أربابها بعضهم على بعض ، حتى أن بعضهم سعى في حرقها ، فلما علم أهلها بما فعله اليونانيون احتدمت في قلوبهم شعلة التعصب حتى بلغنا ذات يوم أن بطريرك القسطنطينية غريغوريوس ذبح عند باب الكنيسة في عيد الفصح ، وأن جثته أعطيت لليهود يجرونها في الأسواق . ثم علمنا بمقتل غيره من الاكليريكيين ، فاشتعل اليونانيون غيظاً ، وجاهروا بالعصيان والانتقام من الدولة ، فلاح لجلالة السلطان محمود اذ ذاك أن يتخذ جنداً نظامياً يعتمد عليه في الحروب ، على غرار ما فعل عزيز مصر ، فاعترضه جنود الانكشارية ، وأنتم تعلمون أن هؤلاء من الأسرى النصارى المفصولين عن أهلهم قبل سن البلوغ ، وكانوا يعلمونهم ويثقفونهم بقواعد الديانة الاسلامية وعلومها ، وقد باركهم (حاجي بكطاش) مؤسس دراويش الطريقة البكطاشية ، فنموا وتكاثروا وكانوا عوناً كبيراً للدولة في سائر حروبها وفتوحاتها ، لكنهم أصبحوا حملاً ثقيلاً على عاتقها لفساد أمرهم وتمردهم .

« فلما أراد السلطان محمود اتخاذ النظام الحديث في جنده واعترضه هؤلاء الإنكشارية لاح له أن يسعى في التخلص من شرهم ، فجمعهم مرة في ساحة (أتميدان) فلما اجتمعوا طلب رؤوس زعمائهم فاعترضوا جميعاً على ذلك الطلب ، وكان السلطان قد صمم على اتخاذ الوسائل القطعية فاما أن يبيدهم أو أن يذعن لهم ، فلما رأى منهم ذلك العصيان أمر بنشر (السنجق الشريف) وهو العلم النبوي ، فانحاز اليه جميع المسلمين إلا العصاة ، فنقل السنجق الى جامع أحمد بقرب أتميدان ، ووقف بجانبه السلطان وقضاة العاصمة وغيرهم . وهناك أخرج السلطان فتوى بقتل الانكشارية فقتلوا في ثلاث ساعات وتخلصت الدولة من شرهم » .

فقال أمين بك : « قد سمعنا بمقتل الانكشارية ، كما سمعنا بمقتل الأمراء المماليك بمصر منذ خمس وعشرين سنة ، فكان السلطان محموداً قد فعل ذلك اقتداء بواليه محمد علي عزيز مصر ، كما اقتدى به في تدريبه الجند على النظام الجديد » .

فلما ذكر أمين بك اسم المماليك تأوه سالم أغا تأوهاً خفياً وقال : « أما اليونان فبقوا ست سنوات يحاربون الدولة العلية بمساعدة سريةمن الدولة الأوربية ، وفي آخر الأمر جاهرت تلك الدول بالتوسط، وهي روسيا وانجلترا وفرنسا، وعقدت مؤتمراً في ٦ يوليو (تموز) سنة ١٨٢٧ بلندن، فقرر ان يتحرر اليونان، وألحقوا هذا القرار بعماراتهم لتنفيذ ذلك بالقوة الجبرية، فتنحت العمارة الروسية وتقدمت العمارتان الانجليزية والفرنسية الى نافارين، حيث كانت العمارة

العثمانية بقيادة ابراهيم باشا فحدثت واقعة في ٢١ أكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٨٢٧ انكسرت فيها عمارة ابراهيم، واستقلت اليونان.

« أما أنا فقد كنت في نافارين قبل مجيء العمارتين فنزلت الى ابراهيم باشا وسلمت له خاضعاً » .

فقال أمين بك : « الحق أنك أفدتنا افادة عظيمة عن استقلال المورة أو اليونان ، ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالاً ربما كان تطفلاً مني ، وقد جرأتني عليه بلطفك ، وبما بينك وبين ولدي من مودة » .

قال سالم أغا : « تفضل » .

فقال : « ان تركك اليونان في حال فوزهم وانحيازك الى ابراهيم باشا ، لم أره سياسة حكيمة ، أما كان الأفضل لك البقاء هناك مستقلاً ؟ » .

فتنهد سالم وقال : « قد تركت تلك البلاد ، اذ ليس لي فيها أرب ، وليست هي وطني ولا لي فيها أهل ، وانما توجهت اليها بحكم الاتفاق طوعاً لمطامع القرصان ، وقد باعني بعضهم فيها بيع الأرقاء وكنت أترقب فرصة أتمكن بها من العودة الى بلادي ، فلم أستطع ذلك إلا عند مجيء ابراهيم باشا الى اليونان كما قلت لكم » .

فقال غريب : « لعلك خرجت من بلادك صغيراً وعدت اليها كبيراً ، فهل عرفك أهلك عندما شاهدوك ؟ » .

فخنقته العبرات ولم يستطع الجواب ، وندم غريب على سؤاله فقال له : « لا بأس عليك يا أخي ، اننا جميعاً لك أهل واخوان » .

فقال : « انما آلمني أني رجعت بعد المشقة والتعب ، فلم أقف لوالدتي المسكينة على أثر » . فقالت سلمى : « واحسرتاه على الأمهات وشقائهن ، فهل تعلم والدتك الآن انك على قيد الحياة ؟ » .

فقال سالم : « لا أدري يا سيدتي ، كما اني لا أعلم أهي على قيد الحياة أم لا ، فقد مضت على فراقنا نحو خمس وعشرين سنة » .

قالت سلمى : « لا شك في أنها اذا كانت حية تكون قد يئست من وجودك ، ولكني أراك تذكر والدتك ولا تذكر أباك » .

فقال : « لأني تأكدت أن أبي قد مات » .

فقال غريب : « هل بحثت عن والدتك حيث تركتها ؟ » .

فقال : « تركتها في مدينة عكا منذ ٢٥ سنة وقد بحثت عنها هناك طويلاً فلم أقف لها على أثر » .

فلما سمعت سلمى ذلك خفق قلبها ، لأنها تذكرت ما أصابها في تلك المدينة التي فقدت فيها ولدها سليمًا ونظرت الى زوجها نظراً خفياً ، فرأته يتنهد تنهداً عميقاً وهو ينظر اليها بطرف عينه .

فقال غريب : « هل أنتم في الأصل من أهل الشام ؟ » .

قال : « لا وانما نحن يا أخي من سلالة قوم أفاضل من مصر ، فقتل والدي هناك وحملتني والدتي وكنت في السابعة من العمر حتى أتت بي عكا ، وهناك نزلت في قارب وحدي للنزهة فقذفتني الأمواج الى البحر فمرت بي سفينة قرصان يوناني أخذوني وباعوني بيع الأرقاء لأحد التجار في نافارين ، فربيت فيها حتى كبرت » .

فازداد خفقان قلب سلمى لما رأت من المشابهة بين هذه الحكاية وحكايتها ، وأرادت التكلم فلم تستطع وكذلك كان شأن أمين بك » .

فقال غريب : « يا للعجب ، اننا نحن من مصر ، وقد أصابنا مثل ما أصابك ، فما اسم والدك لعل أبي يعرفه ؟ » .

فقال سالم : « اسمه أمين ، واسم والدتي سلمى » .

فصرخت سلمى قائلة: «ولدي سليم، حبيبي، مهجة كبدي». ورمت نفسها عليه وجعلت تقبله حتى أغمي عليها. وكذلك فعل زوجها، فبهت سالم لذلك ولكن تحركت فيه العواطف حالاً وتذكر صورتيهما بعد مضي هذه المدة ، فترامى على أيديهما وجعل يقبلهما ، والجميع يبكون من شدة الفرح .

فبهت غريب لذلك لأنه لم يكن يعلم أن له أخاً يدعى سليمًا ، ولكنه اهتم برش أبيه وأمه بالماء حتى أفاقا .

فقال غريب : « ما هذا ؟ من أين نبت لنا هذا الأخ ، وما بال الدهر يأتينا كل يوم بنبأ جديد ؟ » .

ثم أنهضهم الى الغرفة حيث كان النور مشعلاً ، وجعل يتأمل أخاه سليمًا ، ويقبله ويعانقه . ولا تسل عن قلب الوالدة والوالد في تلك الحال .

وكان سليم أقل ذهولاً من والدته لأنه كان قد يئس من الالتقاء بها فضلاً عن يأسه قبل ذلك من لقاء أبيه ، فقضوا تلك الليلة في الحديث عما جرى لهم ، ولم يناموا حتى أصبح الصباح فسار أمين بك الى الأمير بشير وأخبره بالقصة ، وطلب اليه أن يسأل ابراهيم باشا اعفاء سليم من العسكرية وابقاءه في بيت الدين .

ثم عاد وأخبرهم بالسرور الذي شمل الأمير باجتماع شمل العائلة المشتتة وبعث الأمير

الى سليم (سالم أغا) وهنأه بلقاء أهله .

وبعد المحادثة مدة استأذن سليم في الانصراف لأن الأمير كان في اشتغال بالأحوال السياسية وثورات الدروز على الحكومة المصرية .

بعد اجتماع الشمل

خلا الأمير سعيد الى ابنته سعدى بعد انصراف غريب وسالم من عنده ، وأطلعها على ما تم ، وجعل يرغبها في خطيبها ، فلما لم تبد جواباً تركها حتى الصباح ، ثم عاد فسألها رأيها فترددت برهة ثم صارحته بأنها لو لم تكن قد أحبت غريباً ما ألقت نفسها الى الموت من أجله ، الى أن قالت : « ومن يعرف ذلك الآخر وما هو أصله وفصله ؟ » .

فقال الأمير سعيد : « ولكن يا ابنتي ما العمل في أمر ابراهيم باشا ، هل يمكننا مراجعته ؟ » .

فبكت سعدى رغم ارادتها ، وحار أبوها ، وعز عليه أن يجبر ابنته ووحيدته على الاقتران بمن لا تعرفه ولا تميل اليه ، لكنه كان في الوقت نفسه يخاف غضب ابراهيم باشا .

ولما جاء وقت الغداء لم تستطع سعدى تناول أي طعام لشدة كدرها . كل ذلك وأبوها يفكر في وسيلة لانقاذها وانقاذ نفسه من تلك الورطة .

وفيما هو في ذلك دخل الخادم يقول : « ان فارسين بالباب » . فخرج لاستقبالهما فاذا هما غريب وسليم ، فرحب بهما كثيراً لكنهما قرآ على وجهه علائم الغضب والكدر ، فلما استقر بهم المقام قال سليم : « قد جئناك بخبر غاية في الغرابة ، عندك ، وأظنه يسرك وقد يكون موجباً لذهاب غضبك » .

فقال الأمير سعيد : « وماذا عسى أن يكون ذلك ؟ » .

قال : « ان سعدى فيما يلوح لي من نصيب أخي غريب ، ويسرني أن أخبرك بأنه شقيقي ! » .

فذهل الأمير سعيد ولم يفهم المقصود ، فقص عليه قصة والديه من أولها الى آخرها ، فعلم الأمير سعيد اذ ذاك أن قرابة غريب لبني شهاب هي من قبيل الأم ، وان الاثنين اخوان .

ولا تسل عن قلب سعدى لما علمت بما تم لها من عودة حبيبها اليها .

وقضوا بقية ذلك اليوم معاً الى المساء فتفاوضوا في أمر الاقتران فقال غريب : « الأولى أن يأتي والدنا الأمير ويدبر ذلك مع سعادتكم كما هي عادة هذه البلاد » . وبعد العشاء والسهر

انصرفا الى البيت معاً .

وبعد حين سار أمين بك بعد أن استأذن الأمير بشيراً ومعه الأميرة سلمى الى بيت الأمير سعيد ، واتفقوا على وقت الاقتران .

وفي أواخر سنة ١٨٣٦ تم الاقتران باحتفال عظيم دارت فيه ألعاب السيف والعصي وركوب الخيل والجريد ، واجتمع أهل القرى المجاورة بألعابهم وموسيقاهم ومشاهير رجالهم ، وفيهم المهرة في لعب السيف الذين يقطعون به عصي الحديد الملفوفة باللباد ، وفيهم من يقطع الثور الكبير نصفين بضربة ، وفيهم من تفنن بالسيف حتى انه كان يرمي منديلاً من الحرير الرفيع في الهواء ثم يضربه بالسيف فيقطعه شطرين ، الى غير ذلك من ألعاب السيوف .

وكان في مقدمة اللاعبين بعض مشاهير الفرسان ولاعبي الجريد ، وغيرهم من أبطال الألعاب الرياضية التي برع فيها اللبنانيون.

وبالاختصار تم عرس غريب باحتفال عظيم دام عشرة أيام ، كان بيت الدين في أثنائها كأنه شعلة نار لكثرة الأنوار ، أما الموائد فلم ترفع ليلاً ولا نهاراً وكل ذلك على نفقة الأمير بشير ، لأنه كان يحب أن يجبر قلب ابنة عمه الأميرة سلمى بزوجها وأولادها ، فان فرح هؤلاء لم يكن يقدر بعد ما قاسوه من التعب والمشقة والأخطار .

وبقي أمين بك وزوجته وغريب رغم فرحهم يتذكرون ما حدث لسعيد خادمهم الأمين ، وكيف ذهب ضحية شهامته ومروءته ، وكأن الفرح الشديد هاج ذكرى أيام الشقاء فانقبضت نفس أمين بك لتذكره الساعة التي ضرب فيها سعيداً ، وشعر بندم شديد لأنه لم يرجع على أثر الضربة ويبحث عن جثته لعل فيها رمقاً ، فكان الاحتفال قائماً والناس في هرج ومرج بين ضاربي الآلات ولاعبي الألعاب الحربية ، والمغنين ، وأمين بك ساكت لا يكلم أحداً إلا بما يضطر اليه جواباً على مهنىء أو رداً على سؤال .

وفيما هو في ذلك جاءه رئيس الدير المعهود وعلى وجهه امارات البشر ، فنهض أمين بك لتحيته ، فقال له : « أراك يا سعادة البك في ارتباك وكدر فما هو سبب ذلك ؟ » .

قال : « لست في ارتباك ولا في كدر لأني بحمد الله نلت ما كنت أتمناه من جمع الشمل ، ولكن فرحي لم يتم » .

فقال الرئيس : « وماذا ينقصه ؟ » .

قال: «ينقصه ما لا سبيل اليه وانا الجاني فيه».

قال : « عسى الله أن يفتح باب الفرج فانه على كل شيء قدير » .

قال أمين بك : « لا شك أنه قادر سبحانه وتعالى ، وإلا فمن كان يرجو اجتماعنا بعد أن

تشتت شملنا في أنحاء الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ولكن ما أرجوه يا حضرة الرئيس بعيد المنال لأن الرجل الذي أود لقاءه مات وأسفي عليه ، وقد قتلته بيدي » . قال ذلك وتساقطت عبراته .

فتبسم الرئيس وضم أمين بك الى صدره وقال : « أظنك تعني سعيداً خادمك الأمين . ألا فاعلم أنه لم يمت بل هو حي يرزق ! » .

فبغت أمين بك ، ولكنه عاد فظنه يقول ذلك على سبيل المجاملة لتخفيف حزنه فقال : « ما أظنه إلا مات لأن الضربة كانت قاضية » .

فقال الرئيس : « لا بل هو حي يا ولدي ، واذا لم تصدق أريتك إياه رأي العين » .

فظنه أمين بك يمازحه تخفيفاً لكربه فقال : « بالله دعنا من اثارة الأشجان ، فاني لا أرجو رؤ ية سعيد ولا في المنام ، ولكن شخصه نصب عيني ليل نهار » .

فقال الرئيس : « بل الحق أقول لك ، فان سعيداً الآن في الدير عندي ، وقد جئت لأبشرك بقدومه » .

فلما سمع أمين كلامه خفق قلبه وانتصب واقفاً على قدميه وقال : « أين هو ، أرني إياه ، هلم بنا اليه » .

قال : « لا حاجة الى ذهابك ها أنذا ذاهب لاحضاره » . وخرج .

فهرول أمين بك الى سلمى وغريب وسائر أهل بيته وأنبأهم بالخبر ، فكادت قلوبهم تطير من الفرح ، ولم يصدقوا الخبر لبعده عن المنتظر ، أما أمين بك فأوعز الى مباشري الاحتفال بأن يسيروا بالموسيقى ولاعبي السيف والخيالة جميعاً بموكب واحد لملاقاة سعيد قادماً من الدير ، وسارت عائلة أمين بك برمتها وراء الجميع إلا النساء ، وقد حولوا احتفال الزفاف الى الاحتفال بملاقاة سعيد ، وكان العريس في جملة المحتفلين فسار الموكب من بيت الدين وأصوات العازفين والضاربين والخيالة تكاد تبلغ عنان السماء .

فلما كانوا في منتصف الطريق قيل لأمين بك : « ان الرئيس وسعيداً قادمان » . فتقدم هو وولداه حتى التقوا بسعيد فاذا به قد ترجل وهم بركاب أمين بك وقبله ، والتفت يمنة ويسرة لعله يرى غريباً فرآه ولم يعرفه لأنه فارقه صبياً ، وقد صار شاباً ، فألقى غريب بنفسه بين ذراعيه وسلم عليه فعانقه سعيد وعيناه تذرفان دموع الفرح وقال لأمين بك : « أشكر الله على هذه المنة فاني طالما كنت أتمنى هذا اللقاء ، وها قد رأيته بعيني فأحمد الله ، ولكني أراكم قد بالغتم في إكرامي وما أنا إلا عبدكم ولست أهلاً لهذا الاهتمام » .

فتقدم اليه أمين بك وقبله قائلاً : « ما أنت والله إلا أخ وأعز من الأخ ، لأنك سعيت سعياً لا نستطيع مكافأتك عليه ، فقد كنت سبباً لبقائنا كلنا ولولاك ما بقي أحد منا حياً » .

فسكت سعيد احتراماً لكلام سيده ، وبعد أن وقفوا هيبهة في مثل هذه الأحاديث عادوا ماشين على الأقدام والموكب يسير بهم نحو بيت الدين ، ولكن سعيداً كان في مشيه عرج وقد ظهرت على وجهه ملامح الشيخوخة والكبر فقال له أمين بك : « أحب أن أعرف كيف نجوت من تلك الضربة ، وما أخرك عنا الى اليوم حتى يئسنا من حياتك ؟ » .

فتنهد سعيد وقال : « سأقص عليك الخبر قريباً ، أما الآن فدعوني لأرتوي من مشاهدة سيدي غريب ، وقد علمت أنكم تحتفلون بعرسه فما أسعدني بهذا الاحتفال » .

ثم نظر الى سليم وقد استغربه وقال : « اني لم أعرف من هو هذا الشاب ؟ وما أظنني رأيته من قبل ، أو لعلي رأيته ولا أذكر » .

فقال أمين بك : « هذا ولدنا سليم الذي أضعتموه في عكا » .

فهم سعيد به وقبله وقال : « حبيبي أأنت سليم ؟ سبحان الخالق العظيم ، ها أنذا قد نلت من دنياي فوق ما كنت أرجو ، لأني لم أرج قط أن أرى سليمًا حياً ، فهذا فوق ما كنت أنتظر والحمد لله » .

ثم سأله عن سيدته فقيل له : « هي في خير تنتظر وصولك مع سائر أهل القصر في بيت الدين » .

وما أتموا حديثهم حتى وصل الموكب الى القصر ، وخرج من فيه لملاقاتهم ، وخرج أمين بك وسعيد الى دار الحريم فاذا بالسيدة سلمى في انتظارهم ، فهم بيدها وقبلها فسلمت عليه ورحبت به وقالت : « ان فرحي بعودتك أكثر من فرحي باقتران ولدي غريب ، لأنك الصديق الغيور » .

فشكر فضلها وقال : « العفو يا سيدتي بل أنا عبدك وخادمك » .

ثم جلسوا جميعاً وقد عاد الموكب الى الاحتفال بالزفاف وتضاعف الفرح والسرور .

وبقي أمين بك مشغول الخاطر بالطريقة التي نجا بها سعيد ، وسبب تأخره الى ذلك الوقت ، فلما استتب بهم الجلوس قال أمين بك لسعيد : « بالله ألا أنبأتنا كيف نجوت بعد تلك الضربة ؟ » .

فقال سعيد : « لم أفق يا سيدي إلا وأنا مغلول في مكان كالسجن وحولي جماعة السودانيين من أهل شندي يتمتمون ، وقد فهمت من مجمل كلامهم أنهم علموا بأني لست من اخوانهم واستدلوا على ذلك من خطابي لك وأنت شاهر السيف وقادم الي ، وكنت أسمع رطانتهم وأنا بين اليقظة والغيبوبة ثم رأيتهم جاءوني بلبن ودقيق ضمدوا بها جراحي ، ولكنهم ما لبثوا أن جاءهم الخبر بقدوم الجنود المصريين للانتقام منهم ، فحملوني معهم مقيداً يريدون الانتقام مني ، فتقدمت اليهم أن يتركوني وشأني أو يقتلوني ، فأبوا تركي مخافة أن

أخبر المصريين بمخبآتهم ، ولم يريدوا قتلي لأنهم كانوا ينتظرون أن يستفيدوا مني بعض الأخبار .

« وكنت قد تشددت قليلاً فلما هموا بالمسير غافلتهم ذات ليلة وفككت قيودي وفررت من معسكرهم ، وكنت أظنهم لم يشعروا بي فاذا بجماعة منهم قد لحقوا بي فأسرعت في العدو وأنا لا أزال ضعيفاً فأدركوني وقد أنهكني التعب ، فساقوني وأعادوا الأغلال الى رجلي ويدي ، فعاد المرض الي لشدة ما شعرت به من تعب الجسم وضيق الصدر .

« وما زلت على هذه الحال أياماً وهم تارة يقيمون ، وطوراً يرحلون في أواسط الصحراء ، بين العطش والتعب والجوع .

« وفي ذات يوم تركوني في مكان كنا نزلنا فيه وساروا ولكنهم فكوا أغلالي قبل مسيرهم وعطف علي واحد منهم فترك عندي شيئاً من الذرة وقليلاً من الماء .

« فبقيت في تلك الصحراء ضعيفاً نحيلاً لا أستطيع المسير ولا أقوى على النهوض ، الى أن تحققت دنو الأجل فتذكرتكم جميعاً ، ولا سيما حبيبي غريب لأنه ربي على ذراعي ، وهاجت الذكرى أشجاني فأخذت في البكاء والعويل ليلاً ونهاراً ، ولم يكن لي من تعزية في تلك الأحزان إلا تحققي بقاء سيدي البيك حياً ، فدعوت الله أن يجمعه بأهل بيته ، وأسفت كثيراً لأني لم أستطع انباءه بمحل وجودهم .

« وقضيت أياماً على تلك الحال لا آكل ولا أشرب إلا أقل من القليل فضلاً عن خوفي واضطرابي مما كنت أسمعه من اصوات الذئاب والوحوش في أثناء الليل ، فلما خارت قواي وتحققت قرب الوفاة خفت أن أموت في تلك الصحراء وتذهب جثتي طعاماً للوحوش فدببت على رجلي ويدي الى حفرة بالقرب مني وعولت أن أجعلها مرقدي عند موتي فتوسدتها وقد هزل جسمي وجف دمعي من كثرة البكاء » .

فلما وصل بحديثه الى هذه العبارة ترقرقت الدموع في عيون السامعين ولا سيما أمين بك وزوجته الأميرة سلمى .

ثم عاد سعيد الى اتمام الحديث فقال : « ولكن الله نظر الى حالي وضعفي ففتح علي باباً للفرج لم أكن انتظره ، وذلك انني فيما كنت في تلك الحال شاهدت غباراً متصاعداً من بعيد ، ولم تمض مدة حتى رأيت أعلاماً وفرساناً فعلمت أنها شرذمة من الجنود المصريين سائرة في أثر الهاربين ، فأومأت اليهم بيدي ، فشاهدني أحدهم وهرول الي وتبعه آخرون ، فسألوني عن حالي فأشرت اليهم أني من انصارهم ولكني ضعيف فحملوني الى معسكرهم وعالجوني بما وصلت اليه أيديهم .

« وكتب الله شفائي ، فلما أكلت واسترجعت صوابي سألوني فأنبأتهم بأني كنت من رجال

اسماعيل باشا وأخذت أسيراً جريحاً ونصحت لهم بأن يرجعوا عن تعقب أولئك الفارين لأنهم لا ينالون منهم وطراً ، فأذعنوا لمشورتي وعادوا جميعاً الى جهات شندي وأنا معهم ، وكنت قد اعتزمت ان استطعت المسير أن أسارع الى الرجوع لسيدتي ، لأرى ما تم من أمر سيدي ، فأقمت بشندي حيناً وأنا لا أزال ضعيفاً لا أستطيع الاسفار ، وقد لازمتني الحمى فمضى علي سنتان في مثل هذه الأحوال ولم أكاشف أحداً بمقاصدي .

« ثم انتقل معسكرنا الى مدينة الخرطوم ، فشاء حظي السيء أن تزل قدمي وأنا أحاول النزول الى سفينة سودانية فكسرت من عند الفخذ ، فلبثت في الخرطوم أعواماً وفخذي لم يجبر كسره ، لأني لست شاباً ولم أستطع مداواته كما يجب .

« وبعد أن كادت تشفى ، جاء الخرطوم والٍ اسمه خورشيد باشا من قبل محمد علي باشا عزيز مصر ، وأهل السودان كما لا يخفى على سيدي يتخذون بيوتهم من الجلود والقش ، لكن هذا الوالي أصدر أمره الى أهل الخرطوم بأن يبنوها بالآجر (القرميد) ففيما أنا سائر يوماً سقط علي جدار لم يكن قد أقيم كما ينبغي فانكسرت ساقي مرة ثانية ، وقطعت الأمل من الشفاء .

« وأراني قد أطلت الحديث عليكم ، وما نحن في مقام أقاصيص مكدرة فأقول بالاختصار : اني لبثت أعواماً أخرى وأنا أطبب الكسر ، ولا هم لي إلا أن أراكم حتى من الله علي بالشفاء ، فقمت من الخرطوم في السنة الماضية ، وما زلت أركب تارة وأمشي أخرى ، قاطعاً الصحاري والسهول والأنهار والبحار حتى وصلت مساء أمس الى الدير المعهود ، فأنبأني رئيسه بما انشرح له صدري ، وها أنذا بخير » .

فحمدوا الله على عودته سالماً وقال أمين بك : « ان سعدنا الآن قد تم ، فلنتم الأفراح . فأتموها وزادوها وأنبأوا الأمير بشيراً بمجيء سعيد فسر بذلك ، وكان للاحتفال بقران غريب رنة في سائر أنحاء لبنان ، وأنفقت فيه الأموال الطائلة .

ولما كانت سنة ١٨٤٠ اتحدت دول أوربا مع الدولة العثمانية على اخراج ابراهيم باشا وجنوده من سوريا ، وكان الأمير بشير مجاهراً بالانحياز اليه فاستولى عليه القلق والارتباك وجرت في تلك السنة حروب هائلة انتهت على غير المرام لأن الجنود المصريين اضطروا بعد دفاع دام أشهراً الى الانسحاب من الديار السورية ، وكان الأمير بشير محافظاً على اتحاده مع الدولة المصرية اعتماداً على وعود دولة فرنسا بمساعدته ، فلما يئس من مساعدتها عزم على أن يسلم للدولة العثمانية ، وعلم أن تسليمه يستلزم الابعاد عن لبنان فجمع ما لديه من المثمنات في بيت الدين ، وجمع أهل داره وأتباعه ، وبينهم المعلم بطرس كرامة وهم قاصداً الى صيدا .

فلما علم أمين بك وأسرته بذلك ، تفاوضوا فيما يفعلون ، فقر رأيهم على مرافقة الأمير الى حيث يتوجه ، فرافقوه جميعاً .

وفي شهر أكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٨٤٠ وصل الأمير بشير وجماعته الى صيدا، فاستقبله خالد باشا متسلمها بالاكرام، وأشار عليه بالتوجه بحراً الى بيروت.

فلما وصلت الباخرة الى ميناء بيروت بعث السر عسكر يسأل الأمير أن يختار له مكاناً يقيم فيه غير سوريا ومصر وفرنسا ، فاختار مالطة ، واقلعت الباخرة بهم اليها .

خاتمة

وبقي الأمير بشير في مالطة أحد عشر شهراً ، ثم سار الى الاستانة فلما وصل اليها استقبل باكرام جزيل ، وفي اليوم الثاني من دخوله دعاه الصدر الأعظم رؤوف باشا الى مقابلته ، ونظراً الى ما سبق له من النفور منه لاتحاده مع الجيوش المصرية ، أمر أرباب مجلسه ألا يقفوا متى دخل الأمير بشير عليه ، تحقيراً لمقامه .

ولما ذهب الأمير لمقابلة الصدر الأعظم ، ودخل قاعة الصدارة بما كان عليه من المهابة والوقار وروعة المشيب واسترسال شعر لحيته على صدره . وقف الصدر الأعظم أولاً ثم وقف سائر الوزراء .

وبعد أن قضى برهة يتحادث في شؤون مختلفة انصرف فقال الوزراء للصدر الأعظم : « أمرتنا ألا نقف للرجل ورأيناك أول الواقفين ؟ » .

فقال : « والله لا أعلم ما الذي أوقفني بالرغم عن ارادتي حالما شاهدت وجهه ، ولم أكن أظن أن على وجه الأرض رجلاً بهذه المهابة » .

وأمرت الدولة للأمير بدار في قرية أرناءوط كوي على خليج المدينة .

وأما غريب فكان مشتغلاً عن كل شيء بمناظر الأستانة ومبانيها فانه لم يكن قد شاهد مثل هذه العاصمة قط . وبالاجمال أن أمين بك وسلمى وسليماً وغريباً عدوا أنفسهم من أسعد البشر بعد اجتماعهم ، وقد تزوج الولدان واجتمع الش

وفي السنة الثانية توفي الأمير ودفن في الاستانة ، ولم يسمع أحد شيئا عن عائلة أمين بك منذ ذلك الحين .

تمت

مؤلفات جرجي زيدان

بحوث ادبية

العرب قبل الاسلام (مجلد)

تاريخ آداب اللغة العربية ١/٢ (مجلد)

تاريخ التمدن الاسلامي ١/٢ (مجلد)

تراجم مشاهير الشرق ١/٢ (غلاف)

تراجم مشاهير الشرق ١/٢ (مجلد)

روايات تاريخ الاسلام

الانقلاب العثماني

أبو مسلم الخراساني

شارل وعبد الرحمن

فتاة غسان/جزءان

عبد الرحمن الناصر

فتح الاندلس

ارمانوسة المصرية

عروس فرغانة

أحمد بن طولون

الأمين والمأمون

أسير المتمهدي

استبداد المماليك

المملوك الشارد

جهاد المحبين

شجرة الدر

صلاح الدين

غادة كربلاء

الحجاج بن يوسف

١٧ رمضان

العباسة أخت الرشيد

فتاة القيروان

عذراء قريش

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠

وُلِدَ جُرجي زيدان، مؤلف سلسلة «روايات تاريخ الإسلام» هذه في بيروت سنة ١٨٦١ وعاش في القاهرة حيث توفي هنالك سنة ١٩١٤م. وهو يُعتبر من خيرة رجال النهضة الثقافية العربية الحديثة، إذ بالإضافة إلى آثاره العظيمة التي عرفته كباحثٍ عظيم الجلد من مثل «تاريخ التمدن الإسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية» و«تراجم مشاهير الشرق»، والكثير من الأبحاث المختلفة. بالإضافة إلى ذلك نجده ذا رسالة هامة أداها بتبسيطه للتاريخ العربي ووصفه لبيئته ودقائق حوادثه ودوافع البطولة فيه. وقد تفرد بإنتاج مجموعةٍ من الروايات التاريخية في هذا المجال كانت النافذة الأمينة التي أطل منها القارئ العربي الحديث بشوقٍ على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم.

فلقد كان جرجي زيدان بحقٍّ رائدًا من أفضل روّاد النهضة العربية الحديثة. ولئن جاراه الآخرون في أبحاثه التاريخية والأدبية فسيبقى متفردًا بينهم كفنانٍ فذٍّ في سلسلة كتبه هذه التي تصدر هذه الطبعة منها دار مكتبة الحياة، ألا وهي «روايات تاريخ الإسلام» وهي:

سلسلة لا غنى للقارئ العربي عنها

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان